Conan Doyle

— Łaųai Jaъér —

The Valley of Fear

وادي الخوف

لـ آرثر كونان دويل

هذا الكتاب

- تنسيق واعداد -

لؤي جابر

إهداء

إلى أخي...

وسائر الأحبة

المحتويات

المقدمة

أجواء بوليسية مثيرة ورواية كُتبت لتشد القارئ نحو درجة دفعت بها إلى أن تُعتبر واحدة من أفضل الأعمال الخالدة العالمية... بطلها مُدمن المخدرات وعازف الكمان الشهير، والبعيد جداً عن العلاقات الغرامية التي اعتدناها في كثير من القصص (لهذا السبب وُصِفَ بأنه "إنسان آلي، أو آلة حاسبة"). هذا العمل نشر للمرة الأولى في مجلة ستراند البريطانية بين شهر أيلول عام 1914 وأيار 1915، وقد أثار حماسة بالغة في نفوس الأنصار المخلصين، وحقق مبيعات لا تزال في تزايد مستمر حتّى اليوم والغد، وبعيداً عن المبالغة، إنه المثال الأعلى على العمل الكامل مهما تعدّدت الآراء أو الأقوال.

السير آرثر إغناتيوس كونان دويل: ولد في 22 أيار 1859 في أدنبره في اسكتلندا، وفي عام 1882 حصل على شهادة الطب من جامعة أدنبره ثم صار طبيباً على متن سفينة. بعد ذلك استأجر منزلاً صغيراً ليمارس مهنته، ولكن عدد المرضى كان قليلاً فاتجه إلى الكتابة آملاً الحصول على بعض المدخل الإضافي، وأكمل دراسته للحصول على شهادة الدكتوراه عام 1885. لقد ابتكر شخصية تفيض بالقوة، إضافة لأن البعض لا يُصدّق حقيقة كونها خيالية! في عام 1900 تطوّع في حرب البوير (جنوب إفريقيا) وعند نهاية الحرب مُنح وسام الفروسية ولقب "سير" احتراماً لانجازاته. توفي بعد أن بلغ الحادية والسبعين.

المحقّق العظيم

قد يكون أبرز الأعلام الخيالية في التاريخ بعد أن تفوّق بشهرته على شخصيات حقيقية معروفة. ولا شك أنه فاق شهرة مبتكره الذي استوحاه من الدكتور جوزيف بيل الواصل للاستنتاجات المذهلة بناءً على ملاحظاته البسيطة. ومع ذلك فقد كتب إلى كونان دويل قائلاً: "أنت هو شارلوك هولمز، ومن الجيد أن تعلم ذلك." وإليكم دليلاً: ذات يوم من عام 1907 طلبت إحدى السيدات منه نصيحة، قائلة أن نسيبها المفضل اختفى قبل أسابيع في لندن، وقد حيّر لغزه الشرطة من غير أن تعرف ماذا حلّ به! قرر دويل أن يستلم القضية كما اعتاد أن يفعل بين الحين والآخر، فنجح في غضون ساعة في حل اللغز من دون أن يبرح مكانه. وكتب يقول: "نسيبك موجود في اسكتلندا. ابحثي عنه في غلاسكو أو أدنبره وأؤكد لك أنك ستجدينه هناك." وبالفعل، عُثر عليه في اسكتلندا بعد أن مر بلندن. إنما استطاع دويل فكّ اللغز بهذه السرعة بمجرد بحث المسألة من منظار السيد هولمز. لقد أثبت هذا الموقف وغيره أن آرثر كونان دويل شأنه شأن شخصيته الرائعة المنتبهة لأدق التفاصيل، المتميّزة بخيالها الواسع وخبرتها الاجتماعية والفكرية الغنية. الأهم قدراته اللاذعة التحليلية التي لم تولد بمحض المصادفة. بل بمساعدة الدراسة والخبرة المهنية الطويلة. إن هولمز هو أول رجل تحرٍّ استشاري غير رسمي في العالم، وسرعان ما فرض نفسه في الثقافة الانكليزية عامة، وأصبح أحد أشهر الشخصيات الأدبية حتى اليوم.

السلسلة

كانت حكاية هولمز الأولى "دراسة في اللون القرمزي" عام 1887 مقابل أجر قليل. أحد قرّائها كان ناشراً لمجلة شهرية، حضر إلى لندن لإبرام عقد مع كونان دويل وأوسكار وايلد حول كتب جديدة. فألّف دويل رواية ثانية "علامة الأربعة" (1890). في السنة التالية، أقفل دويل عيادته وانتقل إلى لندن حيث أمضى معظم أوقاته في كتابة القصص لمجلة "ستراند" الشهرية. وسرعان ما تخلى عن مهنته ليتفرغ للكتابة. وهكذا عرض على المجلة قصتين جديدتين "فضيحة في بوهيميا" و"عصبة الرؤوس الحمراء". ثم جاءت سلسلة "مغامرات شارلوك هولمز" (1892). ولاقت القصص رواجاً كبيراً فطالبت المجلة بالمزيد منها. فألّف دويل 6 قصص أخرى، حتى أن المجلة وافقت على دفع بدل مرتفع للحصول على 12 قصة إضافية بين 1892 و1893. لكن دويل قرر في قصة "المشكلة الأخيرة" أن يضع حداً لوجود بطله. الواقع أن هولمز احتجب عن الظهور ولم يمت مدة 8 سنوات. إذ قرر إعادة إحيائه عام 1901 كبطل للغز جديد بدأ يحكيه منذ مدة وقد لاقى نجاحاً واسعاً. ظلّ هولمز يظهر بعد عودته في مغامرات جديدة لعقدين إضافيين. فألّف دويل رواية رابعة وأخيرة (وادي الخوف) إضافة إلى نشر قصص في المجلة حتى 1927. إلا أن مستواها تراجع بوضوح مقارنة مع سابقاتها. ومع ذلك لم يتذمر دويل من عدم تجاوب القراء إدراكاً منه لولائهم وصبرهم. وكانت انحناءة هولمز الأخيرة عام 1917.

الجزء الأول

مأساة بيرلستون

الفصل الأول

التحذير

"أعتقد أنه–" قلت.

"سأفعل ذلك" قاطعني شارلوك هولمز بنفاذ صبر.

أعترف أنني أحد أكثر الآدميين معاناة، لكني انزعجت من مقاطعته الساخرة لحديثي.

"حقاً، هولمز" قلت بحدة: "أنت لا تطاق بعض الأحيان."

كان غارقاً تماماً بأفكاره ليجيب على تعنيفي له. وضع رأسه بين يديه ومرفقيه متكأً على طاولة الفطور التي لم يمسه بعد وحدق بورقة كان قد سحبها من مغلفها. ثم أمسك بالمغلف نفسه وقربه من الضوء وأخذ يدرس جهتيه بعناية ودقة فائقة.

"إنه خط يد بورلوك" قال بتفكير: "أنا شبه واثق أنه خط يده، مع انه سبق لي ورأيت خط يده مرتين فقط في السابق. حرف الألف الذي يكتبه مميز جداً. لكن إذا كانت الرسالة من بورلوك فإنها دون شك بالغة الأهمية بدرجة قصوى."

كان يتكلم مع نفسه وليس معي، لكن انزعاجي منه تبخر بسبب أهمية مدلولات كلماته.

"من هو بورلوك هذا إذاً؟" سألته.

"بورلوك، يا واطسون، اسم.... إنه مجرد علامة فارقة لكن خلف هذه العلامة تقع شخصية مراوغة داهية وواسعة الحيلة. بالرسالة السابقة

أعلمني صراحة أن بورلوك هو ليس اسمه الحقيقي وتحداني أن أتمكن من تتبع أثره وسط الملايين الساكنين في هذه العاصمة الكبيرة. بورلوك مهم ليس بذاته، بل بالرجل الضخم الأهمية الذي يرافقه. تخيل صورة سمكة الأسماك والقرش، الثعلب والأسد – أي شيء غير مهم مترافق مع شيء هائل. ليس فقط هائل، واطسون، بل شرير وفاسد – لأقصى درجات الشر والفساد. هذا هو تصوري عنه. لقد سمعتني أتحدث عن البروفسور موريارتي"؟"

"العالم المجرم المشهور، المعروف وسط اللصوص كـ"

"يا خجلي واطسون" تمتم صديقي بصوت مستنكر.

كنت على وشك القول: "كما هو غير معروف وسط الجمهور العادي."

"لمسة! – لمسة مميزة!" صرخ صديقي. "أنت تطور مسحة من المزاح الماكر، واطسون، وهذا هو الشيء الذي يجب أن أتعلم أن أحرس نفسي منه. لكن بنعتك موريارتي بالمجرم فهذا يعتبر تشهيراً وطعناً بنظر القانون. لكن هنا يكمن سر الروعة والحيرة! أعظم مخطط في العالم، المخطط لكل عمل شرير، العقل المفكر للعالم السفلي، العقل الذي كان ليصنع أو ليمسخ مصير الشعوب. هذا هو الرجل الذي أتحدث عنه. لكنه بعيد جداً عن الشك ولوثته – منيع ضد النقد – إنه محترم جداً وعجيب في صنع التبرير للدرجة أنه يستطيع وبسهولة إذا سمع كلماتك المهينة هذه أن يجر جرك إلى المحاكم ويحصل على الحكم بإدانتك لجرحك لشرفه. أليس هو المؤلف الكبير لكتاب "ديناميكية الكويكب" وهو

كتب يتكلم عن أعمق وأهم نظريات الرياضيات المطبقة على الكواكب والنجوم بطريقة لا يستطيع أي رجل في الصحافة العلمية أن ينتقده؟ هل هذا رجل يستحق الشتم والإهانة؟'

ثم ناولني تلك الشيفرة التي استلمها سابقاً، وكانت على النحو التالي:

534 C2 13 127 36 31 4 17 21 41

DOUGLAS 109 293 5 37 BIRLSTONE

26 BIRLSTONE 9 47 171

"ما رأيك في ذلك، هولمز؟"

"من الواضح أنها محاولة لنقل معلومات سرية."

"ولكن ما هي الفائدة من رسالة مشفرة دون أي تلميحات؟"

"في هذه الحالة، لا شيء على الإطلاق."

"لماذا تقول في هذه الحالة؟"

"لأن هناك العديد من التلميحات إن أردنا أخذ الموقف على محمل الجد. وباعتقادي هي إشارة لكلمات في صفحة معينة من كتاب ما."

"لكن لماذا دوغلاس بيرلستون؟"

"من الواضح أن تلك هي الكلمات التي لم تكن واردة في الصفحة المعنية."

"ثم لماذا لم يُشر إلى الكتاب؟"

"اقرأ هذا، واطسون."

"المفتاح (الشيفرة) لك. تمكنت من جمعه معصف. لو رآه لكانت نهايتي. لكنني قرأت الشك داخل عينيه. أرجوك احرق رسالة الشيفرة، التي ستكون الآن بلا فائدة لك.

بورلوك."

جلس صديقي بعض الوقت وهو يقلب هذه الرسالة بين أصابعه، مقطب ومحدق بنار المدفأة.

"بعد كل شيء" قال أخيراً: "لربما لم يكن بالأمر أية خطورة أصلاً. لربما هو مجرد ضمير مذنب. بمعرفته لنفسه أنه خائن فقد قرأ الاتهام بعيون الآخر."

"الآخر، على ما أظن، هو البروفسور موريارتي؟"

"بالتأكيد. حين يكلمني أي أحد من تلك الجماعة عنه "هو". فستعرف فوراً من يقصدون بهذا الضمير. هناك "هو" مسيطر واحد عليهم جميعاً."

"لكن ما الذي يمكن للبروفسور أن يفعل؟"

"همم! هذا السؤال ضخم. حين يكون أحد أهم العقول العبقرية في أوروبا كلها ضدك ويكون إلى جانبه كل قوى الشر والظلام، فهناك احتمالات لا تحصى لما باستطاعته أن يفعل بك. على كل حال، من الواضح أن صديقنا بورلوك مذعور جداً. راقب ببساطة الاختلاف في خطه بين الرسالة التي كتبها بعد شعوره بارتياب "هو" به وبين خط العنوان الذي كتبه قبل وصول "هو" إليه. الأول يكاد لا يقرأ، أما الثاني واضح وثابت."

"لماذا كتب من الأصل هذه الرسالة؟ كان بإمكانه تناسي الأمر."

"لكنه يخشى أن أقوم بتحقيقاتي حوله بهذه القضية، وبالتالي إمكانية تسببي بالمشاكل له."

"بدون شك" قلت: "بالطبع" تناولت ورقة الشيفرة وأخذت أحدق بها ثم تابعت: "من الجنون التفكير أن سراً بالغ الأهمية يقبع هنا بقصاصة الورق هذه، وأنه لا تستطيع أي قوة بشرية اكتشاف سر هذا."

"أتساءل" قال وهو يسترخي على كرسيه ويحدق بالسقف: "لربما هناك نقاط قد غابت عن ذكائك. لنفكر بالقضية بعقلانية ومنطق صافيين. مرجع الشيفرة يعود إلى كتاب. هذه نقطة انطلاقة."

"نقطة غامضة جداً في الواقع."

"لنرى، إذاً. إذا استطعنا تحديد هذه النقطة أكثر. كلما ركزت عقلي عليها كلما بدت أقل غموضاً. ما هي العلامات التي نملكها فيما يتعلق بهذا الكتاب؟"

"ولا أية علامة."

"لا بأس. لا بأس. ليست المسألة سيئة بهذه الدرجة. الرسالة تبدأ بالرقم 534 بالخط الكبير. نستطيع الاستنتاج من هنا أن الرقم 534 هو رقم الصفحة المقصودة بالشيفرة. إذاً فكتابنا دون شك كتاب ضخم، وهو شيء مرتبط بالاستنتاج الأول. ما هي العلامات الأخرى التي نملكها حول هذا الكتاب الضخم؟ الإشارة الثانية هي C2. ما الذي تفهمه من هذا واطسون؟"

"الفصل (Chapter) شيء دون شك."

"لا أكاد ذلك، واطسون، ستوافقني دون شك أنه ما دام قد أعطانا رقم الصفحة فلا يوجد أي داعي ليعطي رقم الفصل وأيضاً إذا كان الرقم 534 يحدد الصفحة الأولى في الفصل الذي ألا يكون برأيك الفصل الأول طويلاً بدرجة غير منطقية وغير معقولة؟"

"رقم عمود (Column) إذاً" صرخت.

"رائع واطسون، أنت متألق هذا الصباح. إذا لم يكن رقم عمود داخل الصفحة فسأكون مخدوعاً. والآن كما ترى، فقد أصبحنا أمام كتاب ضخم كبير، مطبوع بعمودين في كل صفحة، وكل عمود طويل بطريقة واضحة ويمثل إحدى الكلمات داخل العمود المقصود تحمل الرقم 293. هل توصلنا إلى الحدود التي يستطيع العقل أن يصل إليها؟"

"أخشى أننا قد فعلنا."

"أنت بالطبع تقلل من قدر نفسك، علامة إضافية، يا عزيزي واطسون. أعطني موجة عقلية إضافية. لو كان الكتاب كتاباً غير عادي لكان أرسله لي. لكنه قد قصد أن يقدم لي المفتاح برسالة الشيفرة ذاتها. هذا ما يقول برسالته. هذا يعني أن الكتاب يسهل الوصول إليه إذا ما استعملت بعض التحليل المنطقي الدقيق. هو يمتلك هذا الكتاب، وقد تصور أنني بحوزتي أملكه. باختصار واطسون، إنه كتاب شائع الاستعمال جداً."

"ما تقوله يبدو معقولاً جداً."

"إذاً لقد حددنا بحثنا بكتاب كبير، مطبوع بعمودين في كل صفحة، وشائع الاستعمال."

"الإنجيل!" صرخت بانتصار.

"جيد، واطسون، جيد! لكن ليس جيداً كفاية. حتى لو تقبلت المديح لنفسي، فأنا لن أكتب لأقول أنه من الممكن أو حتى محتمل وجود كتاب مقدس مع أي شخص قريب من موريارتي. وأيضاً هناك طبعات مختلفة وعديدة للإنجيل وبهذا فقد لا تتطابق الصفحة بالواحد بنفس رقم الصفحة بالآخر. هذا بالطبع كتاب ثابت، فهو يعرف بالتأكيد أن الصفحة رقم 534 عنده ستكون بنفس الرقم بالكتاب عندي أو بأي كتاب آخر من نفس النوع."

"لكن القليل من الكتب تتناسب مع هذا."

"بالضبط. هنا يكمن خلاصنا. بحثنا قد تحدد بالكتب الكبيرة جداً والتي من المفترض لأي شخص أن يحتويه أو يمتلكه."

"برادشو!"

"هناك صعوبات بهذا الكتاب. الكلمات محددة ودقيقة. خيار الكلمات لن يساعدك على تأليف رسالة من عمود واحد. سنحذف كتاب "برادشو". القاموس، كما أخشى، محذوف أيضاً لنفس الأسباب السابقة. فما الذي يتبقى عندنا إذاً؟"

"الروزنامات!"

"ممتاز واطسون! لقد أصبت الهدف هذه المرة. لنركز على "روزنامة ويتيكر". إنها شائعة الاستعمال. فهي تعدد المطلوب من

الصفحات. إنها مكتوبة بعمودين لكل صفحة. مع أنها مليئة بتعابير في البداية إلا أنها تصبح غنية جداً بمفردات في صفحاتها الأخيرة". تناول الروزنامة من على مكتبه: "ها هي الصفحة رقم 534 وهذا هو العمود الثاني والموضوع هنا يتكلم عن تجارة ومصادر الشحن في الهند البريطانية. دوّن الكلمات واطسون. رقم 13 هي كلمة "مهراجا". أخشى أنها ليست مقدمة جذابة. الثالثة "حكومة"، التي تعني شيئاً على الأقل رغم أنها غير مهمة لنا وللبروفسور موريارتي. الآن لنحاول مجدداً. ما الذي تعنيه حكومة المهراجا؟ يا للأسف! الكلمة التالية "شعر الخنزير". لقد قضي علينا، واطسون! لقد انتهت."

كان يتكلم بخفة لكن ملامحه كانت تعكس خيبة أمله وانزعاجه. جلست بعجز وتعاسة وحدقت بالنار. صمت طويل انقطع بشهقة مفاجئة من هولمز الذي أسرع نحو الخزانة وعاد بروزنامة صفراء ضخمة بين يديه.

"لقد دفعنا الثمن واطسون لكوننا عصريين جداً"، صرخ: "نحن نسبق وقتنا، وقد عانينا من العقوبة المعتادة. بما أننا الآن في السابع فقط من كانون الثاني فقد اعتقدنا أن المقصود بالرسالة روزنامة السنة الجديدة هذه. لكن من المحتمل أكثر أن بورلوك أخذ رسالته من روزنامة السنة الماضية. والآن نرى ما الذي تخبئه لنا الصفحة رقم 534. الرقم 13 هو "هناك". كلمة واعدة أكثر من سابقتها. الكلمة الثانية هي "خطر" — "هناك خطر". ها ها ها! ممتاز. دوّن عندك واطسون: "هناك خطر قد يأتي بسرعة فائقة جداً" ثم عندنا كلمة

"دوغلاس" ثمة بلدة غنية الآن في بيرلستون خطر بيرلستون الثقة سيقع قريباً." والآن واطسون، ما رأيك؟"

كنت أحدق بالرسالة الغريبة التي تشكلت على الورقة بين يدي.

"يا لها من طريقة غريبة ومتعثرة ليصل إلى ما يقصده" قلت.

"على العكس لقد قام بعمل جيد جداً" قال صديقي: "حين تفتش في عمود واحد عن كلمات تعبر بها عن مقصدك فبالكاد ستتوقع أن تجد كل التعابير التي تريدها. ستكون مجبراً على ترك بعض الأمور لذكاء وتحليل من ترسل إليه رسالتك. الرسالة واضحة تماماً. هناك شر ومكيدة تكاد أن تطبق على رجل يدعى دوغلاس، والذي لا نعرف من يكون، وهو يسكن في العنوان المذكور أعلاه، وهو رجل غني ومحترم. هو أي بورلوك واثق – استعمل كلمة "ثقة" لأنه لم يجد غيرها وهي أقرب ما تكون لكلمة واثق – أن الأمر خطير وسيقع قريباً. هذه هي نتيجة عملنا الذي كان تحليلياً حقاً!"

أخذ صديقي يقهقه بمرح للنجاح بفك طلاسم الشيفرة وكان لا يزال يضحك حين قُرع الباب ودخل علينا المفتش المحقق ماكدونالد من الاسكوتلانديارد. كان طويل القامة، نحيل الجسد، بعيون لامعة تظهر الذكاء المتوقد داخله. كان رجلاً صموتاً، جاد الطبيعة عملية ولهجة جنوبية واضحة. لقد سبق لهولمز أن ساعده بقضيتين سابقتين وكانت كالعادة مكافأته هي سروره الذاتي بالوصول إلى حل العقدة. لهذا السبب احترام وتقدير ماكدونالد لصديقي كانا صادقين وكان يعبر عن ذلك باستشارته لهولمز علناً وإظهاره للجميع أنه يستعين ويعتمد عليه ببعض

التقصي الغامضة. ذكاء ماكدونالد وتدابيره بعينه أعتبر أنه لا يوجد أي حرج بالبحث عن المساعدة عند أحد الرجال الأكثر عبقرية في أوروبا كلها والفريد بأساليبه وطرقه وأفكاره العبقرية للوصول للحل في مجال التحري والتحقيق.

ابتسم له هولمز بترحيب وقال: "أوه، أنت طائر مبكر سيد ماكدونالد، تمنى أن تعثر على دودتك بسرعة. أخشى ان هذا يعني حصول جريمة أو ما شابه."

"لو قلت آمل بدلاً من كلمة أخشى لكنت أقرب إلى الحقيقة، أنا أفكر سيد هولمز" أجاب المفتش بابتسامة. "حسن، لربما رشفة صغيرة قد تبعد برودة الصباح. لا، شكراً. أنا لا أدخن. شكراً لك. يجب أن أنطلق على الفور، لأن الساعات القليلة المبكرة ثمينة للغاية كي تعرف بوضوح. لكن -لكن-" توقف المفتش فجأة عن الكلام وكان يحدق بذهول تام بالورقة التي دونت عليها رسالة الشيفرة.

"دوغلاس!" تمتم بدهشة: "بيرلستون! ما هذا سيد هولمز؟ يا رجل، هذا سحر وشعوذة! كيف بحق كل ما هو مقدس حصلت على هذين الاسمين؟"

"إنها شيفرة كنت وصديقي الطبيب نحلها للتو. لكن لماذا — ما هي المشكلة بهذين الاسمين؟"

نظر المفتش من أحدنا إلى الآخر بذهول مندهش.

"المشكلة هي" قال، "أن السيد دوغلاس، المقيم في منزل بيرلستون قد وجد مقتولاً بعنف وقسوة هذا الصباح بالذات!"

الفصل الثاني

حديث شارلوك هولمز

كانت هذه إحدى اللحظات الدرامية التي خُلق صديقي من أجلها. سيكون من الكذب القول إنه قد صُدم أو اندهش لما سمعه من أمر مدهش. ولم يكن من أثر لديه للرعب الذي شعرت به يستدعي تلك الكلمات. لكن بطبيعته العقلانية البعيدة عن العواطف والمشاعر رأيت ملامحه تظهر هدوءه واستمتاعه كأنه كيميائي يرى الكريستال يقع مكانه من فوق محلوله المشبع.

"أمر استثنائي" قال: "لافت للنظر!"

"لا تبدو عليك الدهشة."

"مهتم سيد ماكدونالد ولكن لست مدهشاً. ولماذا أندهش؟ لقد استعملت معلومة من أحد الأشخاص تقول أن أحدهم في خطر. وبظرف ساعة أعرف أن الخطر قد تحقق وأن الشخص المقصود قد قتل. أنا مهتم لكن كي تلاحظ، لست مدهشاً!"

خلال فترة وجيزة أوضح بمختصر مسألة الرسالة والشيفرة. جلس ماكدونالد ويده على ذقنه وحاجبيه الكثيفين الملتقيين.

"كنت في طريقي إلى بيرلستون الآن" قال المفتش: "وقد أتيت لأسألك إن كنت ترغب بمرافقتي أنت وصديقك الطبيب. لكن مما تقوله لربما سنقوم بعمل أفضل هنا في لندن."

"أعتقد ذلك بدوري" وافقه هولمز.

"إذاً سيكون عيب فقط وضع اليد على هذا الرجل ولبقية ستائق."

"بدون شك سيد ماك. لكن كيف تقترح أن نلقي القبض على المدعو بورلوك؟"

قلب المفتش الرسالة بين يديه وكشف المغلف.

"مرسلة من كامبرويل – هذا لا يساعدنا كثيراً. الاسم كما تقول، غير حقيقي. لا يوجد الكثير لنعتمد عليه بالطبع. ألم تقل إنك قد أرسلت له المال رداً على مساعدته؟"

"مرتين."

"وكيف؟"

"بإرسال المبلغ إلى صندوق بريد كامبرويل العام."

"ألم ترغب نفسك بالتحري حول من يستلم المال؟"

"لا."

بدا المفتش متدهشاً ومصدوماً. "ولم لا؟"

"لأنني لا أخلف وعداً مطلقاً. لقد وعدته بعدم ملاحقته منذ الرسالة الأولى التي أرسلها."

"تعتقد أن هناك شخص ما خلفه؟"

"أنا لا أعتقد أنا متأكد."

"ذلك البروفسور الذي سمعتك تتحدث عنه؟"

"بالضبط."

ابتسم المفتش وغمز بعينه تجاهي. "لن أخفي عنك سيد هولمز أنه معتقد في المدينة أنك متحامل دائماً على البروفسور هنا. سنحقق عن بعض الأمور بقضية هذا البروفسور غالمت. يبدو أنه رجل محترم جداً، مثقف جداً وموهوب."

"أنا مسرور أنك توصلت لمعرفة أنه موهوب."

"يا رجل لا تستطيع إلا أن تدرك ذلك. بعد أن سمعت وجهة نظرك لم أستطع إلا أن أتحرى عنه. لقد تحدثت معه حول الخسوف – كيف فتحنا هذا الموضوع لا أعرف – لكنه أحضر مصباحاً وكرة وأوضح لي الأمر بلحظات. وقد أعارني كتاباً، لكن لا أنكر بالاعتراف أنه كان فوق مستوى فهمي، مع أن تعليمي كان ممتازاً. كان سيصبح من أحد أكثر رجال الدين شهرة بشعره الرمادي ووجهه المهيب وذكائه الخارق حين وضع يده على كتفي وأنا على وشك المغادرة كان الأمر كأنه بركة والد قبل عودتك إلى العالم البارد القاسي."

قهقه هولمز وفرك يديه. "عظيم" قال: "عظيم! أخبرني يا صديقي ماكدونالد، هذه المقابلة اللطيفة والمؤثرة كانت في مكتب البروفسور؟"

"هذا صحيح."

"إنها غرفة جميلة، أليس كذلك؟"

"جميلة جداً – ومرتبة جداً بالفعل سيد هولمز."

"جلست أمام طاولة المكتب خاصته؟"

"بالضبط!"

"عيونك بالشمس ووجهه بالظل؟"

"حسناً، كان الوقت مساءً، لكني أظن أن ضوء المصباح كان يوحي."

"يجب أن يكون الوضع كذلك. هل لاحظت وجود لوحة على الجدار فوق رأس البروفسور؟"

"أنا لا أغفل عن أي شيء، سيد هولمز. لأني قد تفحصت ذلك مسبقاً. أجل كانت لوحة لامرأة شابة ورأسها بين يديها وتنظر إليك بنظرة جانبية."

"هذه اللوحة كانت لجان كروز."

بدا الاهتمام على وجه المفتش.

تابع هولمز قائلاً: "قد تعتقد أننا ابتعدنا عن قضيتنا الأساسية لكن ما نتحدث عنه هو لب الموضوع، لب قضية لغز بيرلستون."

ابتسم المفتش قليلاً ونظر نحوي بتوسل.

"أفكارك سريعة جداً بالنسبة لي، سيد هولمز. لقد تركت حلقة أو حلقتين ولا أستطيع تخطي هذه الفجوة. ماذا يعني هذا؟ ما قد تكون صلة الوصل بين رسام ميت منذ مدة صاحب هذه اللوحة وبين مسألة بيرلستون؟"

"كل المعلومات تفيد التحري" علّق صديقي: "حتى الواقعة التافهة التي حدثت عام 1865 والتي هي وصول سعر لوحة لكروز عنوانها "سيدة أخرى"، إلى مليون ومئة ألف فرنك في مزاد بورتاليز العلني والتي قد تعطيك الانعكاس المطلوب."

بالفعل لقد بدا الاستمتاع على وجه المفتش.

"أستطيع أن أذكرك" تابع صديقي: "أن معاش البروفسور ومن مصدر موثوق لا يتعدى السبع مئة جنيه في السنة."

"إذاً كيف استطاع أن يشتري—"

"بالضبط! كيف استطاع؟"

"أوه، هذا مشوق" قال المفتش بتفكير: "تابع حديثك سيد هولمز أنا مستمتع جداً به. تابع من فضلك!"

ابتسم رداً على الإطراء وسأل: "وماذا حول قضية بيرلستون؟"

أجابه المفتش: "لا نزال أمامنا الوقت الكافي. عربتي في الأسفل ولن نستغرق أكثر من ثلث ساعة للوصول إلى فيكتوريا. لكن بشأن هذه اللوحة — أعتقد أنك قد أخبرتني مرة، أنه لم يسبق لك أن التقيت بالبروفسور موريارتي."

"لا، لم أفعل."

"إذاً كيف تعرف تفاصيل غرفة مكتبه؟"

"آه، هذه مسألة مختلفة تماماً. لقد ذهبت إلى منزله ثلاث مرات، مرتين أخذت أنتظره وغادرت قبل أن يصل، ومرة — حسناً، لا يفترض بي أن أعترف بهذا أمام مفتش شرطة، لكني استغليت وقت الانتظار، وفتشت أوراقه واكتشفت أشياء مجهولة."

"وجدت شيئاً واعداً؟"

"بالطبع لا شيء. هذا ما أدهشني. على كل حال، لقد أخذت فكرة عن الموضوع. لقد أظهر ما رأيت أنه رجل واسع الثراء. كيف حصل

على كل هذا المال؟ إنه غير متزوج. شقيقه الأصغر ناظر محطة في غرب إنكلترا يكسب سبع مئة جنيه في السنة. ويمتلك لوحة كوروت."
"حسن؟"
"بالتأكيد النتيجة معروفة."
"تقصد أن له مدخولاً ضخماً وإنه يحصل عليه من مصدر غير قانونية؟"
"بالضبط. بالطبع عندي أسباب أخرى تجعلني أعتقد ذلك – عشرات الخيوط التي تؤدي بغموض إلى مركز الشبكة العنكبوتية حيث يتمخترُ المخلوق السام. لقد ذكرت مسألة اللوحة فقط حتى أوضح لك الأمر."
"لا بأس. سيد هولمز أعترف أن ما تقوله مثير للاهتمام. إنه أكثر من مثير للاهتمام – إنه رائع بحق. لكن سوضح الأمور أكثر إذا سمحت. هل المسألة مسألة تزوير، أو تبييض عملة، أو سرقة؟ من أين يأتيه المال؟"
"هل سبق وقرأت لجوناثان وايلد؟"
"الاسم ليس بغريب عني. إنه كاتب روائي. أليس كذلك؟ لا موهبة عندي بالقراءة – أما أنه اسم تحري ما ورد برواية ما؟"
"جوناثان وايلد لا تحري ولا كاتب روائي. كان سيداً في عالم الإجرام وعاش خلال القرن الماضي – عام 1750 أو ما يقاربه."
"إذاً هو لا يعنيني. أنا رجل عملي واقعي."

"سيد ماك، أكثر شيئاً عملياً تقوم به هو حجز نفسك في غرفتك لثلاثة أشهر والقراءة لمدة 12 ساعة كل يوم عن سجل الجرائم السابقة في الأرض. كل شيء يدور ويعود، حتى البروفسور موريارتي. جوناثان وايلد كان القوة الخفية لكل مجرمي لندن، ثم كان يبيع عقله وحصته مقابل أجر خمسة عشر بالمئة كعمولة. العجلة القديمة تدور والآن تقوم الحديدة بنفس المهمة. لقد حصل هذا في الماضي وسيحصل مجدداً في المستقبل. سأخبرك شيء أو شيئين عن موريارتي قد يثيران اهتمامك."

"أنا بشوق لسماعك."

"صدف وأن عرفت من هو الحلقة الأولى في سلسلته. أوله هذا العقل المسير البارع وآخره كل شقي لندن ولصوصها ومرابيها ومجرميها بكل أنواع الجريمة. نائبه هو الكولونيل سيباستيان موران، والذي يتمتع مثل صاحبه بالمركز المرموق المحترم ويبعد كل البعد عن دائرة الشبهات. ماذا تعتقد أنه يدفع له؟"

"أود سماع ذلك منك."

"ستة آلاف جنيه في السنة. هذا سعر الأدمغة، أترى مبدأ العمل الأميركي. لقد عرفت ذلك بمحض الصدفة فقط. هذا يعطيك فكرة عن ما يجنيه موريارتي وما يقوم به من أعمال. نقطة ثانية. لقد تقصدت ملاحقة شيكات موريارتي لاحقاً. شيكات بريئة عادية يدفع بها مصاريف وفواتير منزله. الشيكات كانت لستة بنوك مختلفة. هل يترك هذا أي انطباع في عقلك؟"

"غريب بالتأكيد، لكن ما الذي تستنتجه من ذلك؟"

"إنه لا يريد أي قيل وقال حول ثروته. لا يجب أن يعرف أي شخص بالثروة التي يملكها هو. لا شك عندي أنه يملك حسابات بعشرين مصرفاً وليس فقط ستة. حين يكون عندك ستة أو ستين من الفروع فسأنصحك بأن تدرس تهماً البروفسور موريارتي."

ظهر الاهتمام العميق على وجه المفتش لكلام هولمز لكنه عاد إلى القضية الأساسية التي زرنا من أجلها.

قال: "يستطيع الانتظار الآن على كل حال لقد أبعدتنا عن القضية الأساسية سيد هولمز بحديثك المثير. ما يهم تعلقت أن هناك صلة وصل بين البروفسور وبين جريمة بيرلستون. هذا ما حصلت عليه من التحذير من رجلك المسمى بورلوك. هل نستطيع الآن وبالاعتماد على حس وفطنة التوصل لأكثر من ذلك؟"

"نستطيع أن نتصور دوافع هذه الجريمة. إنها كما سبق وقلت جريمة غامضة غير واضحة. والآن على افتراض أن مصدر الجريمة هو صاحب فقد يكون هناك دافعين مختلفين. أولاً، أقول لك أن موريارتي يسيطر على أتباعه ورجاله بيد من حديد صلب. نظامه الصارم هناك. هناك عقاب واحد بقانونه، الموت. الآن نستطيع أن نفترض أن هذا الرجل القتيل – دوغلاس هو الذي عرف مصيره المشؤوم أحد المقربين من البروفسور – قد خان بطريقة ما رئيسه. عقابه تلا غلطته وعرف جميع ذلك."

"حسن، هذا أولاً. ماذا ثانياً؟"

"ثانياً لقد ذُكر هذا الأمر بتخطيط من موريارتي بقضية عمل ما.
هل حدثت أية عملية سرقة حديثاً؟"

"لم أسمع بذلك بعد."

"إذا حدث فهذا سيلغي الافتراض الأول ويثبت الافتراض الثاني. قد يكون موريارتي قد فعل ذلك بدافع التخلص من عدو حانق أو أن يكون أحدهم قد دفع له بسخاء للتخلص من الرجل المذكور. قد يكون أمراً من الأمرين أو قد يكون ثالثاً مرتبطاً بهما. سنكتشف ذلك بالتحديد حين نصل إلى بيرلستون نفسها. أعرف أن صاحبنا لن يترك على مسرح الجريمة أي شيء قد يدلنا أو يرشدنا لما حدث."

"إذاً إلى بيرلستون مباشرة!" صاح المفتش: "يا إلهي! لقد تأخر الوقت أكثر مما حسبت. معكم خمسة دقائق للتجهيز والانطلاق."

"وقت كافٍ لكليهما" قال هولمز وهو يسرع نحو غرفته. "وأثناء الطريق عليك أن تطلعني على كل ما يتعلق بهذه القضية."

كل ما يتعلق بالقضية كان للأسف قليلاً ولكنه أدرك أنها تعد بالكثير. جلس صديقي وأخذ يفرك يديه باستمتاع وقد حصل عقله الحاد على قضية يعمل بها الأمر الذي كان باعث الروعة بالنسبة إليه.

أخبره أن رسالة قد وصلته من رئيس شرطة بيرلستون محتواها كالتالي: "حضرة المفتش ماكدونالد. الطلب الرسمي للاشتراك بهذه القضية موجود في المغلف الآخر. أبرق لي بأي قطار ستصل هذا الصباح إلى بيرلستون وسألاقيك على المحطة أو إن لم أستطع ذلك إذ كنت مشغولاً جداً. إذا استطعت إحضار السيد هولمز معك

وزحوك الفن، لأنه سيجد هنا ما يحبه ويمصه. ستلاحظ أن كل شيء قد أعد ليعطي تأثيراً مسرحياً لو لم يكن هناك رجل مقتول في وسط المنصة. كلمتي هي: إنها قضية غريبة!"

"يبدو صديقك ذكياً" علّق هولمز.

"أجل. وايت ميسون رجل نشيط وذكي."

"لا بأس هل عندك أي شيء آخر؟"

"فقط أنه سيتفحص بكل التفاصيل حين نلتقي."

"إذاً كيف عرف عن السيد دوغلاس وأنه قتل بطريقة وحشية فظة؟"

"ذلك في الملف الرسمي. لم يقولوا "بوحشية" فهذه كلمة لا تستعمل رسمياً. ذكروا الاسم جون دوغلاس. ذكروا أن جراحه كانت في الرأس ومصدر سلاح ناري. أيضاً ساعة ارتكاب الجريمة والتي حدثت قبيل منتصف الليلة الماضية. ذكروا أن القضية قضية جريمة دون شك. لكن لم يحصل أي اعتقال لأي شخص. وأن القضية كانت معقدة وغامضة وغير عادية. هذا كل ما نملكه في الوقت الحالي، سيد هولمز."

"إذاً، بعد إذنك سنترك الأمور عند هذا الحد سيد ماك. الإغراء لتكوين نظريات على معطيات غير كافية إحدى أخطر أخطاء مهنتنا. أستطيع أن أثق بشيئين فقط في الوقت الحاضر: عقل مدبر عبقري في لندن وجثة رجل مقتول في بيرلستون. السلسلة بين هاتين النقطتين هي ما علينا كشفها."

الفصل الثالث

مأساة بيرلستون

قرية بيرلستون كانت قرية صغيرة مكونة من العديد من الأكواخ والبيوت الصغيرة. لقرون ظلت القرية محافظة على شكلها، وبفضل طبيعتها وبيئتها الرائعة جلبت إليها العديد من الساكنين الذين بنوا فيلاتهم وسط الأشجار الخضراء، ودكاكينها الصغيرة الحية كانت توحي بأن القرية ستصبح بلدة مزدهرة عما قريب.

على بعد نصف ميل من القرية ووسط ساحة محاطة بأشجار الخوخ كان يقع منزل آل دوغلاس، منزل ضخم أثري كان يسكن به آخر فردين من آل دوغلاس، جون دوغلاس وزوجته. دوغلاس كان رجلاً محترماً بشخصيته وشخصه، كان بعمر الخمسين، بوجه قوي صلب وملامح وسيمة، كان كريماً مع جميع من حوله من القرويين الذين استغربوا مجيء شخص مثقف وغني إلى قريتهم المتواضعة لكنه أسر قلوبهم بلطفه ومشاركتهم كل أفراحهم وأحزانهم وكذلك كان يتعامل معهم بكل تواضع ورقة. ولهذا فقد حظي جون دوغلاس بصيت وشهرة ذائعين في كل بيرلستون.

زوجته، بدورها، كانت معروفة بأناقتها ورقتها وكانت قد تعرفت على زوجها في لندن وكان أرملاً ثرياً وهي فتاة شابة جميلة تصغره بعشرين عاماً تقريباً. تزوجا ومر ببعض المشاكل السخيفة على قلة الثقة.

والزوجة كانت تقلق كثيراً كلما تأخر زوجها عن موعد عودته. هذا الموضوع كان مثار الشائعات والثرثرة بين أهالي القرية.

شخص ثالث كان يعيش تحت سقف آل دوغلاس وهو السيد سيسيل جيمس باركر، الطويل القامة الرياضي الجسد والمعروف في قرية بيرلستون كونه صديقاً مألوفاً وشبه دائم في منزل آل دوغلاس. باركر نفسه كان صديقاً لدوغلاس والزوجته وكان يقضي أوقاته مباشرة في البلدة وركوب الخيل ومرافقة الزوجة بالذهاب على ظهر الخيل. هذه الصداقة والتعارف الحميم كانت أحياناً تثير انزعاج دوغلاس وتوتره. هذا كان ثالث شخص موجود داخل المنزل حين حدثت المأساة. الباقين كانوا الخدم وهم أميس رئيس الخدم والسيدة ألن مدبرة المنزل. الخدم الستة الباقون لم تكن لهم أية علاقة بأحداث ليلة السادسة من شهر كانون الثاني.

في تمام الساعة 11:45 وصل الإنذار الأول إلى مركز الشرطة واستلمه الرقيب ويلسون. السيد سيسيل باركر وصل إلى باب المركز واضطرابه واضح وظاهر، رن الجرس بقوة. مأساة مروعة قد حدثت في منزل دوغلاس ودوغلاس نفسه قد تعرض للقتل. هذه كانت رسالته المتقطعة اللاهثة. عاد مسرعاً إلى المنزل وتبعه بعد لحظات الشرطي الذي وصل إلى مسرح الجريمة حوالي الثانية عشرة ليلاً بعد إخطاره السلطات عن الأمر الذي حدث.

بوصوله إلى منزل المقدور وجد الشرطي الأضواء كلها مضاءة، الستائر مرفوعة والمنزل كله في حالة فوضى عارمة وذهول. الخدم

بوجوههم الشاحبة البيضاء كانوا يتراكضون في الممرات. فقط سيسيل باركر بدا مسيطراً على أعصابه وعواطفه. فتح الباب الأقرب للمدخل وأشار للشرطي ليتبعه.

بهذه اللحظة وصل الطبيب وود. وهو طبيب معروف في القرية. الرجال الثلاثة دخلوا الغرفة سويةً فيما الحارس المرعوب رئيس الخدم يتبعهم ويغلق الباب خلفهم.

الرجل المقتول كان مستلقياً على ظهره وذراعيه مفتوحين في وسط الغرفة. كان يرتدي مئزر نوم زهري فوق ملابس نومه وكان ينتعل حذاءً رقيقاً. انحنى الطبيب بجانبه وقرب المصباح منه. المشهد المروّع أمامه دلهم على المأساة. على صدر القتيل كان هناك سلاح غريب مزدوج الطلقات وكان من الواضح أن الرصاصتين قد فجرتا رأس المغدور وهشمته إلى قطع متناثرة بسبب إطلاقهما من مسافة قريبة جداً.

اضطرب الشرطي وارتبك لهذه المسؤولية الضخمة التي وقعت عليه فجأة.

"لن نلمس أي شيء إلى أن يصل رؤسائي،" قال الشرطي بصوت منخفض وهو يحدق بالرأس المخيف.

"لم يُلمس أي شيء حتى الآن" قال سيسيل باركر: "لقد عملت على ذلك. ترون كل شيء كما رأيته لحظة دخولي تماماً."

"متى كان ذلك؟" سأل الشرطي وهو يسحب دفتر ملاحظاته.

"في الساعة الحادية عشرة والنصف. لم أكن قد بدأت بخلع ملابسي استعداداً للنوم، وكنت أجلس قرب المدفأة في غرفة نومي حين سمعت

الصوت. لم يكن صوتاً عالياً – بل كان مضغوطاً وخفيفاً. أسرعت بالنزول وبعد أقل من نصف دقيقة كنت في هذه الغرفة."

"هل كان الباب مفتوحاً؟"

"أجل، كان مفتوحاً. دوغلاس المسكين كان مرمياً على هذه الحالة. شمعة غرفة نومه كانت لا تزال مشتعلة على المكتب. أنا من أضاء المصباح بعد بضع دقائق."

"ألم ترى أي شخص؟"

"لا. سمعت صوت أقدام السيدة دوغلاس وهي تسرع بنزول السلالم بعدي وهرعت خارج الغرفة لأمنعها من رؤية هذا المنظر المريع. السيدة آلن مدبرة المنزل، أتت واصطحبتها بعيداً. وصل أميس وأنا وهو عدنا إلى هذه الغرفة."

"لكني اسمع دوماً أن الجسر المؤدي إلى المنزل يبقى مرفوعاً طوال الليل."

"هذا صحيح. لقد كان كذلك ولا بد من أنزاله حتى أذهب إلى المركز."

"إذاً كيف يمكن لأي مجرم من الفرار؟ هذا غير معقول. لا شك أن السيد دوغلاس قد أطلق النار على نفسه."

"هذه كانت فكرتي الأولى. لكن انظر" قال باركر وفتح ستارة لتظهر النافذة الواسعة مفتوحة على مصرعيها. "وانظر إلى هنا" تابع وقرب المصباح من حافة النافذة الخارجية: "انظر بقعة الدماء هذه هنا. إنها تدل أن أحدهم وضع قدمه هنا وهو بطريقه للهروب."

"تقصد أن أحدهم قد ألقى بنفسه في النهر؟"

"بالضبط!"

"كنت قلت أنك كنت بالغرفة بعد نصف دقيقة من سماعك لصوت الطلقات، فلا شك أن المجرم كان في الماء بهذا الوقت."

"لا شك بذلك. أتمنى من أعماقي لو أنني أسرعت إلى النافذة حينها، لكن الستائر تخفي النافذة تماماً، كما ترى، وهكذا لم يخطر الأمر ببالي. ثم سمعت بعد ذلك خطوات السيدة دوغلاس ولم أكن لأدعها تدخل الغرفة وتشاهد المنظر المريع. كان هذا ليقتلها."

"إنه منظر مريع فعلاً" علق الطبيب وهو ينظر إلى الرأس المتناثر والعلامات المريعة حوله: "لم أرَ هكذا إصابة منذ تحطم قطار بيرلستون."

"لكني أقول" علق الشرطي وهو يحدق بالنافذة. "من المحتمل جداً أن المجرم قد هرب عبر هذه النافذة إلى النهر المحيط بالمنزل لكن ما أسألك إياه هو – كيف وصل المجرم أساساً إلى المنزل ما دام الجسر مرفوعاً؟"

"آه، هذا هو السؤال" قال باركر.

"في أية ساعة يرفع الجسر؟"

"في الساعة السادسة تقريباً" رد أميس، رئيس الخدم.

"سمعت" قال الشرطي: "أنه يرفع عادة عند المغيب، وهذا يعني حوالي الساعة الرابعة والنصف وليس السادسة في هذا الوقت من السنة."

"كان لدى السيدة دوغلاس ضيوف" رد الخادم: "لم أستطع رفعه إلا بعد مغادرتهم حوالي الساعة السادسة."

"إذاً الأمر هكذا" قال الشرطي: "إذا كان أحدهم قد دخل من الخارج – إذا كانوا من الخارج – فقد دخلوا عبر الجسر قبل الساعة السادسة واختبؤوا في المكان هنا حتى وصل السيد دوغلاس إلى هذه الغرفة بعد الساعة الحادية عشرة ليلاً."

"هذا ممكن. فالسيد دوغلاس معتاد على تفقد كل غرف المنزل كل ليلة قبل خلوده للنوم. هذا ما أوصله إلى هذه الغرفة. الرجل كان بانتظاره وأطلق النار عليه. ثم فر هارباً عبر النافذة تاركاً سلاحه خلفه. هذا هو تصوري للأمر... لأن لا شيء آخر يفسر ما حدث."

تناول الشرطي بطاقة كانت تحت الرجل الملقى على الأرض. كان مكتوباً عليها .V. V والرقم 341.

"ما هذا؟" سأل رافعاً البطاقة.

نظر ماكر إليها بفضول.

"لم أنتبه لها من قبل" قال: "لا شك أن القاتل قد تركها خلفه."

"V. V. 341. لا أستطيع أن أفسر ذلك!"

"ما هي الأحرف .V. V؟ الأسماء الأولى لشخص ما ربما. ما الذي يوجد هناك حضرة الطبيب وود؟"

كانت قطعة حديدية عبارة عن مطرقة وعلى سجادة قرب المدفأة كان هناك صندوق مسامير.

"السيد دوغلاس كان يغير مكان اللوحات البارحة" قال باركر: "رأيته بنفسي يقف على ذلك الكرسي هناك ويثبت تلك اللوحة الضخمة. هذا يفسر وجود المطرقة."

"من الأفضل أن نعيدها إلى السجادة حيث وجدناها" قال الشرطي: "ستحتاج هذه القضية إلى أقصى أدمغة سلك تحليلها. سيكون عملاً من اختصاص شرطة لندن قبل مرور وقت طويل."

رفع المصباح ودار به حول الغرفة وصاح: "يا!" وساحباً الستائر إلى جهة واحدة. "في أية ساعة أغلقت هذه الستائر؟"

"حين كانت الأضواء مضاءة" قال رئيس الخدم: "أي بعد الرابعة تقريباً."

"أحدهم كان مختبئاً خلف هذه الستارة" قال وقرب الضوء من الأرض حيث كانت هناك آثار حذاء موحل على أرض الزاوية: "أقول أن هذا يثبت نظريتك سيد سيسيل باركر. يبدو أن الرجل قد دخل المنزل بعد الساعة الرابعة، حين كانت الستائر مغلقة، وقبل السادسة، حين رُفع الجسر تسلل إلى هذه الغرفة لأنها كانت الغرفة الأولى التي رآها. لا يوجد أي مكان آخر يختبئ به، ولهذا فقد تسمر خلف هذه الستارة. يبدو هذا واضحاً كفاية. من الواضح أن فكرته الأساسية كانت تكمن بسرقة المنزل، لكن صدف أن السيد دوغلاس فاجأه فقتله أولاً وفر هارباً."

"هكذا يبدو الأمر" قال باركر: "لكني أظن، ألسنا نضيع وقتاً ثميناً؟ ألا نستطيع أن نخرج ونمسح المنطقة في الخارج قبل أن يهرب المجرم بعيداً؟"

فكر الشرطي للحظة.

"لا يوجد أية قطارات مغادرة قبل السادسة صباحاً، وبهذا فلا يستطيع الهروب عبر القطار. إذ تنقل الشوارع والدماء منتشرة على ثيابه فسيثير انتباه الناس. على كل حال، لا أستطيع مغادرة المكان هنا إلا حين يصل أحدهم ليحل مكاني، لكني أرى أنه من الأفضل ألا يغادر أي أحد منكم المكان قبل توضيح بعض الأمور."

الطبيب كان يضع المصباح قرب الجثة ويتفحصها. "ما هي هذه العلامة؟" سأل: "هل لهذا أية علاقة بالجريمة؟"

الطبيب كان يكشف عن ذراع القتيل ووجد علامة غريبة عبارة عن مثلث داخل دائرة موجودة على ذراعه الأعلى فوق كوعه.

"هذا ليس وشماً" قال الطبيب: "لم يسبق لي أن رأيت أي شيء مشابهاً لهذا. لقد دمغ هذا الرجل فيما مضى، كما يدمغون الماشية. ما معنى هذا؟"

"لا أتنبأ أني أعرف ذلك" قال سيسيل باركر: "لكني رأيت هذه العلامة على ذراع دوغلاس منذ عشر سنوات تقريباً."

"وكذلك أنا" أكد أميس، رئيس الخدم: "عدة مرات حين كان سيدي يرفع أكمامه أمامي كنت أرى هذه العلامة، وطالما تساءلت عن سرها!"

"إذاً لا علاقة لهذه العلامة بالجريمة. على كل حال" قال الشرطي: "لكنه أمر غامض. كل شيء متعلق بهذه القضية غريب مريع. لا بأس، ما الأمر الآن؟"

ظهر على وجه الحارس علامات الذهول وكان يشير إلى يد القتيل الممدودة.

"لقد أخذوا خاتم زواجه!" قال بشهقة.

"ماذا!"

"أجل فعلاً سيدي لقد كان يرتدي خاتم زواجه الذهبي في إصبعه الصغير في يده اليسرى. ذلك الخاتم المسطح كان يرتديه مع خاتم الزواج وهذا الخاتم ذو الثعبان الملتوي في الإصبع الأوسط. الخاتمين موجودين لكن خاتم الزواج قد اختفى."

"إنه على حق" رد باركر.

"هل تقولون لي" قال الشرطي: "أن خاتم الزواج كان ثالث الثلاثة؟"

"دوماً!"

"إذاً القاتل، أو كائناً من كان، قد خلع الخاتم المسطح هذا، ثم خلع خاتم الزواج ثم أعاد الخاتم المسطح إلى مكانه!"

"هذا صحيح!"

"يبدو لي أنه كلما أسرعنا بالاتصال بلندن كلما كان أفضل" قال: "وايت ميسون رجل ذكي. ولا أي قضية سابقة وقفت بوجهه لم يحر

وقت طويل قبل أن يصل إلى هنا لمساعدتنا. على كل حال، أقول إنها
مسألة تصعب على تفكيري."

الفصل الرابع

الظلام

تمام الساعة الثالثة ليلاً شهد وصول المفتش الأول وايت ميسون إلى مسرح الجريمة بعد اتصال الشرطي به. وكان قد أرسل بطلب المفتش ماكدونالد من الاسكوتلانديارد وكان في محطة بيرلستون في تمام الساعة الثانية عشرة لاستقباله. السيد وايت ميسون كان رجلاً هادئ الطبع لطيف المعشر بوجه منتفخ وجسد متوسط الحجم وكان يبدو كأحد المزارعين بلباسه العادي البسيط.

"قضية غير واضحة مطلقاً، سيد ماكدونالد" ظل المفتش يكرر: "سيكون كل رجال الصحافة على بابنا حين يفهمون. آمل أن نتوصل إلى حلها قبل أن يحشر رجال المباحث الخاصة أنوفهم بهذه القضية ويخرجوا كل الأدلة. لا أذكر مسألة مشابهة لهذه منذ بدئي بالعمل. ستصلك بعض المعلومات إلى منزل السيد هولمز، إذا لم أكن مخطئاً. وأنت كذلك، حضرة الطبيب واطسون، لأن الطبيب يجب أن يقول كلمته أيضاً. غرفتك في فندق آرمز. لا يوجد مكان غيره لكني سمعت أنه نظيف وجيد. سيحمل الرجل حقائبكم. من هنا حضرة السادة، لو سمحتم."

كان رجلاً نشيطاً وعملياً، هذا المفتش. بعد عشر دقائق كنا في غرفنا في الفندق. وبعد عشر دقائق أخرى كنا في شرفة المطعم نراجع صوراً عن المحضر الذي سردته في الفصل السابق. سجل المفتش ماكدونالد بعض الملاحظات فيما أخذ هولمز يهز رأسه بدهشة.

"رائع" قال: "رائع جداً بالكاد أذكر قضية تحمل مثل هذه الصفحات الخاصة."

"اعتقدت أنك ستقول ذلك، سيد هولمز" قال المفتش وايت ميسون: "لقد تفحصت كل شيء ونستطيع إضافة بعض النقاط على تقرير الشرطي."

"ما هي هذه النقاط؟" سأل هولمز بهمة.

"حسناً، أولاً لقد تفحصت المطرقة. وكان الخشب وود. لم نشاهد أي علامات عنف عليها. كنت آمل أنه لو دافع السيد دوغلاس عن نفسه بالمطرقة لكان ترك عليها بعض آثار لجرم نفسه. لكن لم يكن عليها أي أثر."

"هذا بالطبع لا يبرهن أي شيء" علق المفتش ماكدونالد. "لقد حصلت العديد من الجرائم بالمطرقة دون ترك أي أثر عليها."

"هذا صحيح. هذا لا يبرهن أن المطرقة لم تستعمل. لكن كان من المحتمل أن يكون عليها بعض البصمات وكان ذلك سيساعدنا. ثم تفحصت بعد ذلك السلاح. كانت بندقية صيد وكما لاحظ الشرطي فإن كلا الزنادين قد أطلقا سوية. مهما كان من دبر هذا الأمر فهو كان يعمل بثقة على ألا يفلت المغدور من بين يديه. البندقية لم تكن بسعة الطول وبإمكان أي شخص أن يحملها تحت معطفه. لم يكن عليها اسم الصانع بين أحرف "P-E-N" محفورة على الزناد وبقية الاسم غير موجودة."

"حرف P كبير والبقية أصغر؟" سأل صديقي.

"بالضبط."

"إنها شركة بيستدينا للأسلحة – شركة أمريكية معروفة" قال هولمز.

حدق المفتش ويت ميسون بصديقي دهشة كالمروي المدهش لتمكن الملدي من حل أحرف تركه وبطرف لحظات.

"هذا مساعد جداً سيد هولمز. لا بد أنك على حق. رائع رائع! هل تحفظ أسماء كل شركات صنع الأسلحة في ذاكرتك؟"

تجاهل هولمز الموضوع بحركة من يده.

"لا شك أنها من صنع أمريكي" تابع المفتش ويت ميسون: "فقد قرأت أن الخارجين هناك يستعملون هذا النوع من البنادق. بعيداً عن اسم الشركة تعد ظرفاً هذا الأمر على نحو. هناك دليل إذا أن الرجل الذي دخل المنزل وقتل سيده هو أمريكي."

هز ماكدونالد رأسه: "يا رجل، أنت تتسرع بهذه الأحكام" قال: "لم أسمع أي دليل بعد أن أي شخص غريب قد دخل المنزل من الأساس."

"النافذة المفتوحة، بقعة الدم على حافة الخارجية، البطاقة الغريبة، آثار الحذاء الموحل في الزاوية، السلاح."

"ولا شيء من كل هؤلاء قد لا يكون مدبراً. السيد دوغلاس كان أمريكياً، أو أنه قد عاش لفترة طويلة هناك، وكذلك السيد باركر. لست بحاجة لإحضار أمريكي من الخارج لتشبيه عمل أمريكي."

"أميس، رئيس الخدم"

"ماذا عنه؟ هل هو محل ثقة؟"

"عشرة سنوات مع السيد تشارلز تشاندوز – وكان صلباً كالصخرة. كان يخدمه دوغلاس منذ امتلاك هذا الأخير للمنزل الأثري فمنذ خمس سنوات. لم يسبق له وشاهد سلاحاً مماثلاً لهذا في المنزل من قبل."

"لقد صنع السلاح ليختفي. لهذا حجمه كان صغيراً. بالإمكان إخفاؤه بأي صندوق. كيف كان بإمكانه أن يقسم أنه لم يشاهد سلاحاً مماثلاً من قبل في المنزل؟"

"حسناً، على كل حال، هو لم يسبق له أن رآه."

هز ماكدونالد رأسه الذكي. "لست مقتنعاً حتى الآن أن أحدهم قد دخل المنزل. أطلب منك أن تعتبر ما يتضمنه الأمر لو أنك تفترض أن السلاح قد أُدخل إلى المنزل وأن كل هذه الأشياء الغريبة قد قام بها شخص من الخارج. أوه، يا رجل، إنه أمر مستبعد! إنه شيء ينافي المنطق. أحيل الأمر إليك سيد هولمز، أحكم عليه كما تراه أنت."

"لا بأس أوضح قضيتك سيد ماك" قال صديقي.

"الفاعل ليس سارقاً، هذا إذا افترضنا أنه موجود من الأصل. الخاتم والبطاقة استعملا للإيحاء بأن الجريمة حدثت بدافع شخصي. جيد جداً. هذا رجل يتسلل إلى المنزل بنية محددة وهي قتل صاحب المنزل. إذا كان يعلم بأنه سيواجه صعوبة بالمغادرة والمنزل محاط بالمياه. فأي سلاح يختار؟ سيختار أكثر الأسلحة صمتاً في الأرض. عندها سيكون عنده أملاً أنه بعد إنهاء مهمته سيتمكن من مغادرة المنزل بفرصة أفضل بكثير من سماعه لسلاح يصدر أي صوت. هذا مفهوم. لكن هل من

المفهوم أن يحضر معه أكثر الأسلحة صخباً وصوتاً في العالم ليرتكب بها جريمة مدركاً أن الصوت سيجلب كل شخص داخل المنزل بأقصى سرعة وأنه من الممكن جداً أن يشاهده أحدهم قبل هروبه عبر النافذة؟ هل هذا معقول سيد هولمز؟

"حسن، أنت تشرح القضية بمنطق وذكاء" رد صديقي بتفكير: "إنها قضية بحاجة للشرح فعلاً. هل لي أن أسأل سيد وايت ميسون، إن كنت قد تفحصت ضفاف النهر على الفور لترى إن كان هناك أي أثر للرجل المطلوب؟"

"لقد فعلت لكن لم يكن هناك أي أثر، سيد هولمز، فالضفاف صخرية ومن الصعب ترك أي أثر عليها."

"لم تشاهد لا آثار ولا علامات؟"

"أبداً!"

"آه! هل عندك أي اعتراض سيد وايت ميسون، على الذهاب إلى المنزل على الفور؟ هناك نقطة صغيرة قد تكون موحية."

"كنت على وشك أن أقترح ذلك عليكم، سيد هولمز، لكني رأيت أنه من الأفضل إطلاعكم على كل الحقائق قبل الانطلاق."

"على الصواب!"

"إذاً تفضلوا الآن حضرة السادة ويشرفنا وجودكم معنا سيد هولمز وكذلك حضرة الطبيب واطسون، تمنى أن يكون لنا جميعاً مكاناً في كتابك عندما يحين الوقت."

اتجه نحو المنزل المقصود عبر طرقات القرية الرملية إلى أن وصل إلى المنزل الأثري الذي يعود تاريخه لثلاثة قرون مضت. كان مبنياً من الحجر الرمادي وكان مبنياً على شكل قلعة والمياه تحيط به من كل جانب.

"تلك هي النافذة" قال المفتش وايت ميسون وهو يشير إلى نافذة في أقصى اليمين: "إنها التي تقع مباشرة فوق الجسر. وهي لا تزال مفتوحة كما كانت البارحة بالضبط."

"تبدو ضيقة لمرور رجل عبرها!"

"حسناً، يبدو أنه لم يكن رجلاً سميناً. لا نحتاج إلى استنتاجك سيد هولمز لنعرف ذلك. لكن أنا أو أنت بإمكاننا التسلل عبرها بدون صعوبة."

مشى هولمز إلى حافة القرية وتفحصها.

"لقد تفحصت المكان بدقة سيد هولمز ولم أعثر على أي شيء" قال وايت ميسون: "ولا أي علامة أن أحدهم قد مر. لكن هل سيترك الفاعل أي أثر؟"

"بالضبط. لماذا يفعل؟ هل المياه دوماً معكّرة؟"

"عادة تكون مثل هذا اللون. الجدول يحضر معه التراب."

"كم هو عمق المياه؟"

"حوالي قدمين على الأطراف وثلاثة في الوسط."

"إذاً لا مجال مطلقاً لفكرة أن الرجل قد غرق تحت المياه؟"

"لا. يستطيع الطفل عبور النهر دون أن يغرق."

دخل مدير عام الحرس متحركاً واستند على الباب رجل شاحب قوي الجسد كان رئيس الخدم أميس. المسكين كان شاحب اللون بشدة ويرتعش من هول الصدمة. كان يرافقه أيضاً رقيب الشرطة في القرية بشكله الرسمي الطويل القامة. الطبيب كان قد غادر.

"أي شيء جديد، رقيب ويلسون؟" سأل المفتش وايت هيسون.

"لا سيدي."

"إذاً بإمكانك العودة إلى مركزك. عند تلقي كلمتك. نستطيع أن نرسل بطلبك إذا احتجنا لك. من الأفضل أن ينتظر رئيس الخدم في الخارج. قل له أن يخبر سيسيل ميتشل بارك، السيدة دوغلاس ومديرة المنزل أننا قد نسألهم بعض الأسئلة بعد قليل. والآن أيها السادة. اسمحوا لي أن أخبركم عما كونته حول هذه القضية وبعدها تستطيعون أن تصلوا إلى تصوراتكم الخاصة."

لقد أثار تحدي مفتش الريف هذا. لقد كان عملاً بارداً عقلانياً ومنطقياً لم يؤهله للارتفاع في منصبه. استمع هولمز له بانتباه.

"هل القضية قضية انتحار أم جريمة قتل – هذا سؤالنا الأول، حضرة السادة. أليس كذلك؟ إذا كانت القضية انتحاراً فعلينا التصديق أن الرجل قد بدأ ذلك بخلع خاتم زواجه وخبأه، ثم أنه حضر إلى هنا بثياب نومه، ووضع الوحل في الزاوية حتى يوهم الآخرين أن أحدهم كان بانتظاره، فتح النافذة، ووضع الدم على الـ–"

"نستطيع بالطبع استبعاد هذا الأمر" قاطعه ماكدونالد.

"هذا ما نعتقده أنا ودوري أيضاً. الاحتمال خارج نطاق البحث. إذاً ما حدث هنا هو جريمة قتل. ما علينا تحديده هو ما إن كانت الجريمة قد نفذت بواسطة شخص من خارج المنزل أو من داخله."

"لا بأس لنسمع وجهة نظرك."

"هناك صعوبات جمة في كلا الجانبين، ولكن حالة منها هي الحقيقة. سنفترض أولاً أن شخصاً أو أشخاصاً من الداخل ارتكبوا الجريمة. أحضروا الرجل إلى هنا حين كان كل شيء هادئاً وساكناً لكن لم يكن أحدهم قد خلد للنوم بعد. ثم قاموا بقتل الرجل بأكثر الأسلحة ضجيجاً وإزعاجاً. كأنهم يريدون إخبار الجميع بما حدث - سلاح لم يسبق وأن شوهد داخل المنزل. هذه لا تبدو بداية مقنعة. أليس كذلك؟"

"صحيح."

"إذاً الجميع موافق أنه بعد إطلاق الرصاص لم تمضِ دقيقة واحدة قبل أن هرع جميع من في المنزل نحو مكان الصوت - ليس السيد سيسيل باركر وحده، مع أنه يدعي أنه أول من وصل إلى مسرح الجريمة، بل آميس وجميع الخدم - كانوا جميعاً في المكان المحدد. هل من المعقول أن الفاعل تدبر بتلك اللحظة ترك آثار الوحل في الزاوية، وفتح النافذة، ووضع الدم على الحافة، نزع خاتمه تخفى عنه وهرب؟ هذا مستحيل!"

"أنت تشرح القضية بوضوح" قال هولمز "أنا أتفق معك تماماً."

"حسناً. إذاً نحن نرجع مجدداً إلى أن الجريمة قد نفذت من قبل شخص من الخارج. لكن هنا أيضاً نواجه بعض الصعوبات الجمة.

لكنه، على الأقل ليست ضمن مجال المستحيل. شخص دخل المنزل بين الساعة الرابعة والنصف والسادسة -التي بين ذهاب ووقت رفع الجسر المتحرك. كان بعض الزوار داخل المنزل. وكان الباب مفتوحاً، وبهذا لم يمنعه شيء من الدخول. ربما كان مجرد لص عادي، أو أنه كان يكن للسيد دوغلاس ضغينة ما. بما أن السيد دوغلاس قضى معظم سنين حياته في أمريكا، وهذا السلاح أمريكي الصنع، فإن مسألة الضغينة الشخصية تبدو الأكثر احتمالاً. تسلل إلى هذه الغرفة لأنها كانت الغرفة الأولى التي مر بها. فدخلها واختبأ خلف الستارة. بقي في مكانه هذا حتى الساعة الحادية عشرة والنصف ليلاً. بهذا الوقت تقريباً دخل السيد دوغلاس الغرفة. كانت مقابلة قصيرة. إذا كان هناك أية مقابلة من الأصل، لأن السيدة دوغلاس تقول أنه بعد مضي دقائق قصيرة على ترك زوجها لها سمعت صوت الطلقات.

"الشمعة بنورها تؤكد ذلك" قال صديقي.

"بالضبط، الشمعة، التي كانت جديدة، ليست محروقة سوى لنصف إنش فقط. لا شك أنه قد وضعها على المكتب قبل أن يتعرض للهجوم وإلا، لكانت سقطت على الأرض حين سقط هو. هذا يثبت أنه لم يهاجم باللحظة التي دخل بها الغرفة. حين وصل السيد باركر كان المصباح مضاءً والشمعة مطفأة."

"هذا واضح تماماً."

"حسن، والآن نستطيع بهذه رسم خطوط كالتالي. السيد دوغلاس يدخل الغرفة. يضع الشمعة على المكتب يظهر شخص من

حنف السترة، وهو مسلح بهذ السلاح، يطالب بخاتم أربوف الخص للسيد دوغلاس [illegible] اسباب وحده يعرف السبب. لكن لا شك أن هذ. ما حصل. السيد دوغلاس يناوله إياه، بعدها إما بأعصاب باردة أو بصراع ما – لربما يكون دوغلاس قد أمسك بالمطرقة التي كانت على الأرض - أطلق الشخص النار على دوغلاس بتلك الطريقة المريعة، رمى بسلاحه، وكما يبدو هذه البطاقة الغريبة (V. V. 341) محيا كان معه وهرب عبر النافذة إلى النهر ومنه إلى اللحظة فيها كان سيسيل باركر يكتشف الجريمة. ما رأيك بهذا، سيد هولمز؟"

"ممتع. مثير جداً. لكنه غير مقنع تماماً."

"يا رجل سيكون أي شيء آخر مجرد هراء" صاح ماكدونالد. "أحدهم قد قتل الرجل ومهما كان القاتل فأستطيع أن أبرهن لك أنه قام بالجريمة بطريقة مختلفة. ما الذي يقصده بجعل هروبه سريعاً ومختصراً هكذا؟ ما الذي يقصده باستعماله سلاحاً يصدر كل هذا الضجيج في حين أن الصمت هو فرصته الوحيدة للهروب؟ هيا سيد هولمز. إنه يعطيك الأجوبة بالقدرة. بما أنك تقول أن نظرية المفتش وايت ميسون ليست مقنعة."

هولمز كان بهذا الوقت يستمع بانتباه وعيونه يراقبه تتحرك ذات اليمين وذات الشمال في حسبه متفحص بتفكير.

"أود الحصول على بعض حقائق الإضافية قبل أن أعطي أية نظرية، سيد ماك" قال صديقي وهو يحني قرب الجثة. "يا إلهي! هذه الإصابة فعلاً رهيبة. هل نستطيع استدعاء رئيس الخدم للحظة؟

أمس، فهمت أنك كنت تشهد هذه العلامة الغريبة. المشط داخل درج، على درج السيد دوغلاس دوماً؟

"أجل سيدي."

"ألم تسمع أية تسيحدث حول معه؟"

"لا، سيدي."

"لا شك أنها سببت له الكثير من الألم حين دُمغت على ذراعه. إنها دون شك ممموعة بالنار. ولكن، هناك ضمادة صغيرة جانب فم سيدك، هل كانت موجودة أثناء حياته؟"

"أجل سيدي، لقد جرح نفسه قبلاً البارحة أثناء حلاقته لذقنه."

"هل سبق له وجرح نفسه أثناء الحلاقة؟"

"ليس منذ مدة طويلة، سيدي."

"مؤثر" قال صديقي: "إما أن يكون قد جرح نفسه بطريقة الصدفة فقط أو أنه كان متوتراً ومضطرباً من أمر ما. هل لاحظت أي شيء غير عادي بتصرفاته البارحة، أميس؟"

"لقد صدمني لأنه كان متوتراً وعصبياً جداً، سيدي."

"هاه! الهجوم قد لا يكون مفاجئاً وغير متوقع. يبدو أننا نتقدم قليلاً، أليس كذلك؟ ربما عليك أن تستجوبه بنفسك، سيد ماك؟"

"لا، سيد هولمز. الأمر بين أيدي أفضل."

"إذاً، سننتقل إلى تلك البطاقة (V. V. 341) إنها بطاقة خشنة. هل عندكم بطاقة مثل هذه داخل المنزل؟"

"لا أعتقد ذلك."

مشى هولمز نحو المكتب ووضع نقطتين من محبرتين كانتا على المكتب على قطعة ورق.

"لم تصنع هذه البطاقة بهذه الطريقة" قال: "هذا حبر أسود، والآخر بنفسجي. البطاقة مكتوبة بقلم حبر سميك. لا. لقد كُتبت البطاقة في مكان آخر. هل تستطيع فهم أي شيء من هذه الأحرف أو الأرقام أميس؟"

"لا، سيدي، لا شيء."

"ما رأيك سيد مك؟"

"هذا يعطيني الانطباع بتورط جمعية سرية من نوع ما. جمعية تتعلق بالعلامة الموجودة على ذراعه."

"هذه هي فكرتي أنا أيضاً" قال المفتش وايت ميسون

"حسن، نستطيع اعتبار هذا تخيلاً ممكناً. وحينها سنرى كيف ستنقشع الصعوبات. عميل لهذه الجمعية تسلل إلى المنزل، انتظر وصول دوغلاس، حطم رأسه بسلاحه وهرب عبر الساقية بعد تركه لبطاقة قرب الجثة وذلك حتى تشاهدها الصحف وتعلم بقية أعضاء الجمعية بالانتقام الذي لحق بأحد أفرادها. هذا يبدو مترابطاً. لكن لماذا هذا السلاح من بين كل أنواع الأسلحة؟"

"بالضبط."

"ولماذا خاتم الزوج مفقود؟"

"هذا صحيح."

"ولماذا لم يحصل أي اعتقال حتى الآن؟ لقد قربت الساعة على الثالثة ظهراً. أعتقد أن رجال الشرطة قد انتشروا بعدها أميس بحثاً عن غريب بثياب مبلله. أليس كذلك؟"

"هذا صحيح، سيد هولمز."

"إذاً إذا لم يكن له مكان يلتجئ إليه أو كان معه ثياب جافة يبدلها فلا بد أن تجده الشرطة. ومع ذلك فلم تتم أية عملية اعتقال حتى الآن." اقترب هولمز من النافذة وكان يتفحصها بعدسته المكبرة: "هذه البقعة من أثر حذاء بالتأكيد. إنه حذاء ضخم هذا أكيد. هذا مثير للفضول. لقد كان يتمتع بقامة طويلة بلا شك. على كل حال، ما هذا تحت الطاولة؟"

"أوزان السيد دوغلاس لرياضة الرفع" قال أميس.

"أوزان رياضية – هناك فقط وزن واحد. أين غيره؟"

"لا أعرف، سيد هولمز. ربما كان هناك وزن واحد من الأصل. لم أنتبه لهما منذ أشهر."

"وزن واحد–" ردد هولمز بجدية لكن تعليقاته انقطعت بسماع الدقة على الأرض. ظهر رجل طويل القامة ملوح الشمس وسيم المظهر. عرفت فوراً أنه السيد سيسيل باركر. عيونه الواسعة تنقلت بسرعة بنظرات مستاءة بين وجوهنا.

"آسف لمقاطعتي تحقيقاتكم" قال: "لكن يجب أن تسمعوا آخر الأنباء."

"اعتقال؟"

"ليس بهذه الدرجة. لكنهم وجدوا دراجته. لقد تركها المعتدي خلف شجرة حديقة. تعالوا وانظروا بأنفسكم. إنها تبعد حوالي مئة يارد عن باب المدخل."

وجدنا ثلاثة أو أربعة مكانس بطريقنا نحو الباب الخلفي وكانت الدراجة مخبأة خلف بعض النباتات الخضراء. كانت دراجة من النوع الجيد. كان في سلة الدراجة علبة زيت ومفتاح لكن بدون أي دليل.

"ستستعد هذه الأشياء الشرطة في التحقيق" قال المفتش: "يجب أن نشكر حظنا لهذا. إذا لم نكتشف المكان الذي ذهب إليه فقد نعرف المكان الذي أتى منه. لكن ما الذي جعله يترك الدراجة هذه خلفه؟ وكيف تحقق سبابه هرب بدونها؟ يبدو أننا بدأنا نحصل على بعض الضوء بهذه القضية، سيد هولمز."

"ليس بعد؟" رد صديقي متسائلاً: "لا أتساءل!"

الفصل الخامس

أهل الدار

"هل رأيتم كل ما تريدون رؤيته بهذه الغرفة؟" سأل المفتش وايت ميسون.

"لهذا الوقت" قال المفتش ماكدونالد وطأطأ هولمز رأسه موافقاً.

"إذاً لربما ترغبون الآن بمتابعة التحقيق مع بعض أفراد العائلة هنا؟ نستطيع أن نستعمل غرفة الجلوس. أميس، لو سمحت تفضل أنت أولاً وأطلعنا على ما تعرف."

تقرير رئيس الخدم كان بسيطاً وواضحاً، وكان صادقاً بكلامه. لقد توظف في المنزل منذ خمس سنوات. كان يعرف أن السيد دوغلاس رجلاً ثرياً وقد قضى معظم حياته في أمريكا. وكان رب عمل لطيف وكريم – هذا الشيء الذي لم يكن أميس معتاداً عليه كثيراً. لم يشهد أية علامات خوف من السيد دوغلاس. بالعكس فقد كان الرجل بالغ الجرأة. وكان يرفع الجسر كل مساء حفاظاً على تقاليد المنزل. وكان نادراً ما يذهب إلى لندن أو يغادر المنزل. لكن باليوم الذي سبق الجريمة ذهب للتسوق في تونبردج ويلز. أميس لاحظ بعض التوتر والقلق في تصرفات سيده ذلك اليوم لأنه بدا نافذ الصبر ومزعجاً. وهذه لم تكن عادته. لم يخلد إلى السرير تلك الليلة، بل كان في الحديقة يطفئ الفضة حين سمع جرس سيده يطنطن. لم يسمع أية طلقات لأن المسافة بعيدة بين غرفة المكتب والحديقة الخلفية. السيدة دوغلاس قد خرجت من

عرفتها، على صوت الجرس القوي، توجها نحو واجهة المنزل سوياً، حتى وصلا إلى أسفل السلالم شاهدا السيدة دوغلاس تنزل السلالم. لا، لم تكن تنزل بسرعة لم يظهر أنها كانت منزعجة أو مضطربة. حالما وصلت إلى أسفل السلالم أسرع السيد باركر بالخروج من باب غرفة المكتب. أوقف السيدة دوغلاس وتوسلها العودة إلى غرفتها.

"بحق الرب، عودي إلى غرفتك" صاح السيد باركر: "جاك المسكين قد مات. ليس باستطاعتك عمل أي شيء. بحق الرب، عودي، عودي!"

بعد إقناعه لها عادت السيدة دوغلاس إلى غرفتها. لم تصرخ. لم تفوه بأية كلمة أو حتى شهقة. السيدة ألن، مديرة المنزل، اصطحبتها إلى الطابق العلوي ومكثت معها في غرفتها. أميس والسيد باركر ذهبا بعد ذلك إلى غرفة المكتب حيث شاهدا كل شيء كما شاهدته الشرطة الآن. الشمعة لم تكن مضاءة حينها، إلا أن المصباح كان كذلك، نظرا عبر النافذة لكن الظلام كان دامساً ولم يستطيعا مشاهدة أي شيء. أسرعا بعد ذلك بالعودة إلى البهو حيث أنزل أميس الجسر المتحرك وانطلق السيد باركر عبره ليحضر الشرطة.

هذه كانت شهادة رئيس الخدم.

شهادة السيدة ألن مديرة المنزل كانت بسيطة وتتطابق مع شهادة أميس. غرفتها كانت في القسم الأمامي من المنزل وأقرب إلى غرفة المكتب من مكان أميس في الحديقة. كانت تستعد للخلود إلى النوم حين سمعت صوت الجرس. كانت صعبة السمع. ربما لهذا لم تسمع

صوت الطلقات، لكن على كل حال غرفة المكتب كانت بعيدة عن غرفتها. سمعت صوتاً ما، ربما كان صوت باب يصفق بشدة. هذا كان مبكراً قبل نصف ساعة تقريباً من سماعها لصوت الجرس. حين أسرع السيد أمس نحو مقدمة المنزل سارت هي معه. رأت السيد باركر بادي الشحوب والاضطراب يخرج من غرفة المكتب ويقطع طريق السيدة دوغلاس التي كانت تنزل على السلالم. توسل إليها تعود إلى غرفتها، وأجابته، لكن بكلمات غير مسموعة.

"اصطحبيها إلى فوق. وابقي معها!" قال السيد ميسيس باركر لمديرة المنزل. وهكذا فقد اصطحبتها إلى غرفة النوم وهدأت من خاطرها كانت السيدة دوغلاس مضطربة وترتعش بشدة، لكنها لم تحاول النزول مجدداً. ظلت في غرفتها بمئزرها المنزلي ورأسها بين يديها. السيدة ألن بقيت معها معظم الليل فيما بقية الخدم فقد عادوا إلى أسرتهم ولم يصلهم الإنذار إلا قبل وصول الشرطة بفترة قصيرة. كانوا ينامون في آخر المنزل ولن يسمعوا أي شيء.

فيما يتعلق بمديرة المنزل – فهي لم تضف أي شيء سوى التعجب والذهول.

حان الآن وقت شهادة السيد باركر. فيما يتعلق بأحداث الليلة السابقة فلم يكن عنده الكثير ليزيده على ما قاله للشرطة. كان السيد باركر مقتنعاً أن القاتل قد هرب عبر النافذة. بقعة الدم عليها هي خير دليل على ذلك بنظره، ولكنه لم يستطع أن يفهم كيف فر القاتل ولماذا

ترك دراجته خلفه، إذ كانت المزعجة له من الأصل. هو بالطبع لم يعرف بالنهر الذي لم يكن عميقاً!

بعقله كان هناك نظرية خاصة فيما يتعلق بالقصة. دوغلاس كان رجلاً متكتماً وهناك فصول في حياته لا أحد يعرف عنها أي شيء. كان قد هاجر إلى أمريكا في سن شبابه الأولى. ازدهرت أعماله هناك وتعرف عليه السيد باركر في كاليفورنيا، حيث تشاركا بأعمال ناجحة سوياً. وقد نجح عملهم وازدهر بشدة لكن دوغلاس باع كل شيء فجأة وقرر الهجرة إلى إنكلترا كان أرملاً بذلك الوقت، ترك باركر بعد ذلك أمريكا وجاء إلى إنكلترا من أجل ماله الموجود مع دوغلاس. وبهذا فقد جدد صداقتهما. أعطاه دوغلاس الانطباع أنه كان يشعر بوجود خطر يحدق به، وأنه قد ترك كاليفورنيا ولجأ إلى هنا المكان الهادئ بسبب ذلك الخطر. تخيل باركر أن هناك جمعية أو مؤسسة سرية ما كانت تلاحق دوغلاس وأنها لن ترضى إلا بقتله. بعض تصرفات وحركات دوغلاس أعطته هذا الانطباع، مع أنه لم يخبره مطلقاً عن هذه الجمعية ولا كيف تورط معها. لكنه يفترض أن للبطاقة علاقة بتلك الجمعية السرية.

"كم كانت مدة معرفتك معه في كاليفورنيا؟" سأله المفتش ماكدونالد.

"خمسة سنوات."

"كان أعزباً، كما تقول؟"

"أرمل."

"هل عرفت من كانت زوجته الأولى؟"

"لا. أذكر أنه قال بأنها كانت ألمانية وقد رأيت صورتها. كانت امرأة بارعة الجمال. ماتت بسبب التيفوئيد قبل سنة من لقائي به."

"لم تتعرف على أي شيء حول ماضيه في أمريكا؟"

"سمعته يتكلم عن شيكاغو. هو يعرف تلك المدينة جيداً وقد عمل بها. سمعته يتحدث عن الفحم والحديد. كان يسافر كثيراً إلى هناك في ذلك الوقت."

"هل كان سياسياً؟ هل للجمعية السرية هذه علاقة بالسياسة؟"

"لا. لم يكن يأبه مطلقاً للسياسة."

"أليس عندك أي سبب يدفعك للاعتقاد أنه كان مجرماً؟"

"على العكس. لم يسبق لي وقابلت بحياتي رجلاً مستقيماً مثله."

"هل كان هناك أي شيء فضولي حول حياته في كاليفورنيا؟"

"كان يحب ويفضل العمل في الجبل. ما كان يذهب إلى أي مكان فيه الكثير من الرجال والأشخاص. لهذا اعتقدت أن أحدهم يلاحقه. ثم حين غادر فجأة إلى إنكلترا تأكدت من ذلك. أعتقد أنه استلم تحذيراً من نوع ما. بعد أسبوع واحد على رحيله جاء العديد من الرجال يسألون عنه."

"أي نوع من الرجال؟"

"لا يطمئن. كانوا رجالاً أشداء بوجوه صارمة جاءوا يستفسرون عنه ويسألون حول مكان تواجده. أخبرتهم أنه قد ذهب إلى أوروبا ولا أعرف أين مكانه. لم يكونوا يضمرون له خيراً. كان من السهل معرفة ذلك."

"هل كان هؤلاء الرجال أميركيين – من كاليفورنيا؟"

"لا أعرف إذا ما كانوا من كاليفورنيا. كانوا أميركيين أجل. لكنهم لم يكونوا من عمال المناجم. لا أعرف من كانوا، وكنت سعيداً جداً لرؤيتهم يرحلون."

"هذا كان قبل ستة سنوات؟"

"حوالي التسع سنوات."

"بعد هذا قضيتما خمس سنوات سوية في كاليفورنيا. إذاً هذا العمل يعود إلى حوالي أحد عشر سنة مضت؟"

"هذا صحيح."

"لا بد أنه ثأر رهيب هذا الذي يمتد بعد عشرة سنوات. المسألة ليست سهلة أبداً."

"أظن أن هذه المسألة طبعت حياته كلها. لم يبتعد هذا الأمر عن أفكاره مطلقاً."

"لكن إذا أدرك الرجل أن الخطر يحدق به، وأدرك ماهية هذا الخطر، ألم يكن باستطاعته اللجوء إلى الشرطة؟"

"ربما كان خطراً من النوع الذي لا يستطيع أن يحمي نفسه منه. شيء واحد يجب أن تعرفه. إنه ما كان يغادر المنزل إذا لم يكن مسلحاً. مسدسه ما كان يفارق جيبه مطلقاً. لكن، لسوء حظه، أنه كان يرتدي مئزر نومه حين ترك غرفته ليلة البارحة. حالما ارتفع الجسر ظن أنه صار بمأمن من أي خطر."

"أود توضيح تاريخ بالدت" قال سيد ماكدونالد "بعد مضت ست سنوات منذ ترث دوغلاس كاليوريا. تبعته في السنة التالية. أليس كذلك؟"

"هذا صحيح."

"وقد مضى على زواجه خمس سنوات. لا شك أنك عدت قبل ذلك."

"قبل زواجه بشهر تقريباً."

"هل كنت تعرف السيدة دوغلاس قبل زواجه؟"

"لا. كنت بعيداً عن إنكلترا منذ عشر سنوات."

"لكنك صرت تراها دائماً بعد ذلك."

نظر باركر بحدة إلى المحقق. "صرت أراه هو أيضاً دائماً بعد ذلك" أجاب: "إذا كنت أراها فلأنك لا تستطيع أن تزور الرجل دون رؤيتك لزوجته. إذ تخيلت أن هناك أية علاقة"

"أنا لا أتخيل شيئاً، سيد باركر. يجب أن أجري كل الاستفسارات والتحقيقات اللازمة حول هذه القضية. لكني لا أقصد أية إهانة."

"بعض الاستفسارات مهينة" أجاب باركر بغضب.

"نحن نقصد تبيان الحقائق. من مصلحتك ومصلحة كل من حولك أن تكشف الغطاء عن كل شيء. هل كان السيد دوغلاس يوافق تماماً على صداقتك مع زوجته؟"

ازداد شحوب بركر وشبك يديه ببعضهما بتوتر. "لا يحق لك طرح سؤال كهذا" صرخ بحدة: "ما علاقة هذا بالقضية التي تحقق بها؟"

"يجب أن أكرر السؤال."

"حسناً. أنا أرفض الإجابة."

"تستطيع أن تمتنع عن الرد، لكن يجب أن تدرك أن امتناعك عنه هو بحد ذاته قد يعتبر إلا ردا. لأنك لن تمتنع عن الإجابة لو لم يكن عندك شيء تخفيه."

وقف بركر مكانه ووجهه متصلب الملامح وغرق بتفكير عميق. ثم رفع نظره نحوه بابتسام. "لا بأس. أعتقد أيها السيدة أنكم تقومون بعملكم فقط ولهذا لا يحق لي أن أمتنع عن الإجابة على أي من أسئلتكم.

سأطلب فقط ألا تزعجوا السيدة دوغلاس بهذه المسألة لأن لديها ما يكفيها من الهموم والتعقيدات. أستطيع أن أخبركم أن دوغلاس المسكين قد ارتكب خطأً وحيداً في حياته، وهذا كان غيرته. كان يحبني حباً جماً – فقد كنا صديقين حميمين جداً. وكان مخلصاً لزوجته. كان يحب أن آتي إلى هنا وكان دائماً يطلب مني ذلك. لكن إذا رآني أتحدث وزوجته أو لاحظ أي علامة من الانسجام والتعاطف بيننا، كانت تجتاحه موجة من الغيرة والغضب، كان يغضب ويتفوه بأقسى الكلمات. لأكثر من مرة غادرت هذا المنزل لهذا السبب، لكنه كان يعود مراسلتي ويطلب مني بشدة المجيء إلى هنا. لكن تستطيعون أن تثقوا بكلمتي هذه، حضرة السادة، ولو كانت هذه كلمتي الأخيرة، ولا أي رجل كانت له

زوجة مخلصة ومحبة مثل زوجته – وأستطيع القول أنه ولا أي رجل آخر أيضاً كان له صديقاً مخلصاً مثلي!"

كلماته صدرت بعمق وحرارة لكن المفتش ماكدونالد لم يعلق الموضوع.

"أنت تدرك" قال المفتش: "أن خاتم زواف مغرور قد نزع من يده؟"

"هذا ما يبدو" قال باركر.

"ماذا تقصد بكلمة "يبدو"؟ إن هذه حقيقة"

بدا الرجل مرتبكاً ومتوتراً.

"حين قلت "يبدو" قصدت أنه من ممكن أن يكون هو نفسه من نزع الخاتم."

"الحقيقة لمجرد بحصاء الخاتم، كائناً من كان قد انتزعه، سيعطي تلميحاً لأي شخص أن هناك علاقة بين الزواج والمأساة التي حدثت. أم ماذا؟"

هز باركر كتفيه العريضتين. "لا أستطيع السؤال بما يوحيه ذلك" قال: "لكن إذا قصدت أن تلمح أن ذلك قد يسيء بأية طريقة إلى شرف السيدة–" برقت عيناه لحظة. ثم وبجهد سيطر على أعصابه وتابع: "–لا بأس فأنت على الطريق الخاطئ. هذا كل شيء."

"لا أظن أن عندي أي شيء لأسألك عنه في الوقت الحاضر" قال المفتش ماكدونالد ببرود.

"هناك نقطة صغيرة بعد" علق شيرلوك هولمز: "حين دخلت الغرفة كان ضوء الشمعة فقط ينير المكان أليس كذلك؟"

"أجل هذا صحيح."

"على ضوئها رأيت أن حدثاً مريعاً قد حدث؟"

"بالضبط."

"فدققت الجرس على الفور؟"

"أجل."

"وأتت المساعدة بسرعة؟"

"بدقيقة تقريباً."

"لكن حيث وصلوا وجدوا أن الشمعة كانت مطفأةً والمصباح كان مضاءاً. يبدو هذا غريباً."

مرة ثانية ظهرت أمارات التوتر على ملامح باركر. "لا أرى أي شيء غريب بهذه النقطة، سيد هولمز" قال بعد فترة صمت: "الشمعة كانت تلقي ضوءاً خافتاً سيئاً. فكرتي الأولى كانت الحصول على إضاءة أفضل. المصباح كان على طاولة المكتب وبهذا فقد أضأته."

"وأطفأت الشمعة؟"

"بالضبط."

لم يطرح هولمز أي سؤال آخر وغادر باركر الغرفة بعد أن رمانا بنظرة تحدٍ متعمدة تنقلت من وجه أحدنا إلى الآخر.

حان الآن دور السيدة دوغلاس التي دخلت الغرفة الآن. بقامتها الطويلة المتناسقة ووجهها الجميل المتناسق الملامح بدرجة تثير العجب.

من الواضح أن وجهها كان شاحباً وبارداً كمن تعرض لصدمة كبيرة لكنها كانت متماسكة واليد التي وضعتها على الطاولة كانت ثابتة كيدي أنا. عيونها الحزينة المتوسلة تنقلت من أحدنا إلى الآخر، تعبير الاستفسار العصبي. النظرة المتسائلة أخذت شكل سؤال فوري.

"هل توصلتم لأي شيء؟" سألت.

هل تهيأ لي أن الخوف هو الذي يضعف صوتها وليس الاستفسار؟

"لقد اتبعنا كل خطوات ممكنة، سيدة دوغلاس" قال المفتش: "عليك التأكد أننا لن نغفل عن أي شيء."

"لا تكترثوا لمسألة المال" قالت بصوت ميت النبرات. "رغبتي هي ألا توفروا أي جهد ممكن."

"ربما استطعت إلقاء بعض الضوء على القضية."

"أخشى أنني لن أستطيع ذلك، لكنني سأجيب بسرور على كل أسئلتكم."

"لقد عرفت من السيد سيسيل باركر أنك لم تدخلي غرفة المكتب وقت حدوث المأساة."

"لقد طلب مني العودة إلى غرفتي وأنا على السلالم. توسلني أن أفعل ذلك."

"حسناً. لقد سمعت صوت الطلقات ونزلت فوراً."

"وضعت مئزري علي ثم نزلت فوراً."

"كم من الوقت مضى بين سماعك صوت الطلقة وبين إيقاف السيد باركر لك على السلالم؟"

"ربما دقيقتين أو ما يقارب ذلك. من الصعب تحديد الوقت بالضبط تلك الليلة. توسلت ألا أدخل الغرفة وأكد لي أنني لا أستطيع القيام بأي شيء، ثم قادتني السيدة آلن إلى الطابق العلوي. كل هذا كان كالكابوس المزعج."

"هل تستطيعين أن تخبريني كم مضى على نزول زوجك من غرفة النوم حين سمعت صوت الطلقة؟"

"لا، لا أعرف. لقد ترك غرفة ملابسه ولم أسمعه متى نزل بالضبط. وهو يقوم بجولة على كل غرف المنزل كل ليلة لأنه كان يخشى من اندلاع حريق ما. هذا هو الشيء الوحيد الذي كان يخيفه."

"هذه هي النقطة التي أريد الوصول إليها، سيدة دوغلاس. لقد تعرفت على السيد دوغلاس هنا في إنكلترا، صحيح؟"

"أجل، لقد مضى على زواجنا خمس سنوات حتى الآن."

"هل سمعته يتحدث عن أي شيء قد حدث له في أميركا وقد يشكل له خطراً ما؟"

فكرت السيدة دوغلاس بعمق للحظات.

"أجل" قالت أخيراً: "لطالما شعرت أن خطراً ما يحوم حوله. رفض مناقشة هذا الأمر معي. ليس بسبب عدم ثقته بي – كان هناك كل الحب والثقة بيننا – لكنه كان لا يريد أن يثير مخاوفي. قال أنني سأعظم الأمور إذا عرفتها ولهذا فقد ظل صامتاً."

"كيف عرفت بالأمر إذاً؟"

أضاء وجه السيدة دوغلاس بابتسامة سريعة.

"هل يستطيع الرجل الاحتفاظ بسر حول حياته بوجود زوجة محبة بجانبه دون أن تشك بذلك؟ عرفت من خلال عدة أمور، كقصة تم التحدث حول بعض الفصول عن حياته في أمريكا. عرفت ذلك من بعض الاحتياطات التي كان يقوم بها، ومن بعض الكلمات التي كانت تفلت منه بين الحين والآخر، ومن طريقة نظره إلى الغرباء الغير متوقع حضورهم. كنت واثقة تماماً أن عدواً قوياً يترصد به، وأنه كان يعرف بأنه وأنهم يتعقبونه وأنه كان مضطراً للاحتراس والانتباه. كنت متأكدة من ذلك ولهذا، طوال كل السنوات الماضية كنت أموت رعباً كلما تأخر بالعودة إلى المنزل."

"هل لي أن أسأل" سأل هولمز: "ما هي الكلمات التي لفتت انتباهك؟"

"وادي الخوف" ردت السيدة: "هذا رد استعمله حين سألته. "كنت أعيش في وادي الخوف، ولم أخرج منه بعد." "ألن نخرج أبداً من وادي الخوف؟" سألته هذا السؤال حين رأيته مرة شديد الاضطراب وعصبيه. رده كان: "أحياناً أعتقد أننا لن نخرج من ذلك مطلقاً."

"بالطبع سألته عن معنى "وادي الخوف"؟"

"لقد فعلت. لكن وجهه كان يتصلب ويهز رأسه. "من السيء كفاية أن يكون أحدنا عرف بهذا الأمر ويعيش بظله." قال: "أتوسل إلى الرب ألا يورطك أنت به." كان ذلك وادياً حقيقياً سبق له وعاش

به وهناك وجه أمراً مريعاً – من هذا أنا متأكدة – لكني لا أستطيع إخباركم بشيء أكثر من هذا."

"ولم يذكر مطلقاً أية أسماء؟"

"بلى. كان مصاباً بالحمى مرة حين تعرض لحادثة صيد قبل ثلاث سنوات. أذكر أنه ظل يردد الاسم ذاته. كان يلفظه بخوف وغضب. ميغينتي (McGinty) – الرئيس ميغينتي. سألته حين استرد عافيته عمن يكون صاحب اسم ميغينتي هذا وكان رئيس من. "ليس رئيسي الحمد لله" كان جوابه لي نصفه وهو يضحك. هذا كان كل ما تفوه لكن هناك علاقة بين رئيس ميغينتي ووادي الخوف."

"سؤال آخر" سأل المفتش ماكدونالد: "التقيت بالسيد دوغلاس في لندن، وقد تمت خطوبتكما وزواجكما هناك؟ هل كان هناك أية قصة رومانسية، أي شيء غامض أو سري حول زواجكما؟"

"كانت هناك قصة حب رومانسية. هناك دوماً رومانسية بقصص الزواج. لكن لم يكن من شيء غامض."

"لم يكن له أي منافس؟"

"لا. كنت حرة تماماً."

"لقد عرفت دون شك بحقيقة خاتم زفافه. هل يعني هذا أي شيء لك؟ لنفترض أن أحد أعدائه من الماضي قد لاحقه إلى هنا وارتكب جريمته، فما هو السبب الذي سيدفعه لسرقة خاتم الزفاف خاصته؟"

للحظة أستطيع أن أقسم أن طيف ابتسامة ظهر على فم السيدة

"أنا فعلاً لا أعرف" أجبت: "إنها فعلاً نقطة غير عادية."

"لا بأس لن نزعجك لأكثر من هذا. ونحن نأسف لتعريضك للاستجواب بمثل هذه الظروف" قال المفتش: "هناك بعض النقاط الأخرى بالطبع، والتي قد نعود إليك بها لاحقاً."

نهضت ورأيت مجدداً تلك النظرة السريعة المستفسرة داخل عينيها وهي تنقل بصرها بين وجوهنا: "ما هو الانطباع الذي تركته لديكم مشهدي؟" سؤالها بغير منطوق كان قبل أن تغادر الغرفة.

"إنها امرأة جميلة، امرأة جميلة جداً" قال ماكدونالد بتفكير بعد خروجها: "هذا الرجل باركر كان يتردد إلى هنا بكثرة دون شك. إنه رجل جذاب بالنسبة للنساء. اعترف أن القتيل كان غيوراً وربما كانت له أسبابه الوجيهة تدفعه للأمر. ثم هناك خاتم الزواج. لا نستطيع التغاضي عن ذلك. الرجل الذي ينتزع خاتم الزواج من إصبع الرجل الميت... ما رأيك بهذا سيد هولمز؟"

صديقي كان جالساً ورأسه بين يديه مستغرق كامل بأفكاره. ثم نهض ورن جرس الخدم.

"أميس" قال حين دخل رئيس الخدم: "أين هو السيد سيسيل باركر الآن؟"

"سأفتش عنه سيدي."

عاد بعد لحظة ليقول أن السيد باركر موجود في الحديقة.

"هل تستطيع أن تذكر، أميس، ما الذي كان ينتعله السيد باركر بقدميه ليلة البارحة حين دخلت وإياه إلى غرفة المكتب؟"

"أجل، سيد هولمز. كان ينتعل زوجاً من خفين للنوم. أحضرت له حذاءه حين خرج ليخبر الشرطة."

"أين هما خفيه الآن؟"

"إنهما تحت الكرسي في غرفة البهو."

"جيد جداً، أميس. من المهم أن نعرف أية آثار هي تعود للسيد ماركر وأيها تعود للدخيل."

"أجل، سيدي. أستطيع القول أني لاحظت وجود بعض بقع الدم على أسفل الخفين. وهذا ما حصل لحذائي الخاص في الواقع."

"هذا طبيعي كفاية، نظراً لحالة غرفة المكتب. جيد جداً، أميس. سأدق الجرس إذا احتجتك مجدداً."

بعد لحظات كنا مجدداً في غرفة المكتب. هولمز كان قد أحضر خف السيد ماركر من البهو. كما قال أميس كعب الخفين كان ملطخاً بالدماء.

"غريب!" تمتم هولمز وهو يقف أمام النافذة ويتفحص الخفين بدقة: "غريب جداً بالفعل!"

وبلحظة تحرك سريع من لحظاته المدركة طابق الخف مع بقعة الدم الموجودة على حافة النافذة وطابق الخف مباشرة على البقعة. ابتسم صديقي بصمت لزملائه.

ظهر الاهتمام الأكبر على وجه المفتش ماكدونالد وصاح: "يا رجل، لا شك في تطابقها! لقد وضع ماركر علامة الدم على النافذة

بنفسه. الأمر كما هو واضح لم يكن حذاء بكعب وهذا هو التفسير. لكن ما هي اللعبة سيد هولمز؟ ما هي اللعبة؟"

"أجل، ما هي اللعبة؟" كرر صديقي بتفكير.

قهقه مفتش ويت ميسون وفرك يديه ببعضهما برضا.

"لقد قلت إنها مكيدة" صاح، "وهي مكيدة حقيقية فعلاً!"

الفصل السادس

ضوء الفجر

كان أمام المحققين الثلاثة الكثير من الأمور التي تحتاج للتحقيق والاستفسار، ولهذا فقد عدت بمفردي إلى فندقي المتواضع، ولكن قبل ذلك قمت بجولة على الحديقة المحيطة بالمبنى. الحديقة كانت رائعة الحسن بصف أشجار الصنوبر المحيطة بها والديكورات المتنوعة لأحواض الزهور. كل شيء هنا كان يوحي بالسلام والانتعاش وحاولت الانخراط بها، حتى أهدأ من أعصابي المضطربة جراء رؤيتي للجثة الممددة فوق، وفيما أنا أتجول بالحديقة رأيت شيئاً أعادني فوراً إلى قضية الجريمة وترك انطباعاً عميقاً داخل عقلي.

قلت أن صفاً من أشجار الصنوبر يحيط بالحديقة ونحو نهايتها من الطرف الأبعد للمبنى كانت الأشجار متكاثفة وكثيرة كالسور الطبيعي. حين أنا أقترب من ذلك المكان وصل إلى مسامعي أصوات تتحدث، تعلق ما بصوت رجولي تلته ضحكات نسائية ناعمة ودافئة. بعد لحظة كنت قد درت حول السور الطبيعي للأشجار ووقع نظري على السيدة دوغلاس والسيد باركر قبل أن ينتبها لوجودي. مظهرها سبب لي الصدمة. بغرفة الجلوس كانت متماسكة وباردة. الآن كل التظاهر بالحزن قد تبخر من ملامحها. عيناها كانت تلمعان بضوء الحياة ووجهها لا يزال يرتعش بالتبسم للتعليق الذي قاله لها رفيقها للتو. كان يجلس قريباً، يديه متماسكتين وذراعيه على ركبتيه وعلى وجهه الوسيم ابتسامة

سحره. للحظة – لكنها كانت لحظة بعد فوات الأوان – استعادا قناعيهما حين رأوني. كلمة سريعة مرت بينهم ثم نهض باركر واقترب مني.

"عفواً سيدي" قال: "لكن هل أنا أخاطب الطبيب واطسون؟"

أجبت ببرود واضح أظهر الانطباع السيء الذي تركته رؤيتهم لي.

"لقد اعتقدنا أنك هو لأن صداقتك بالسيد شرلوك هولمز معروفة ومشهورة. هل تمانع بالاقتراب والتحدث مع السيدة دوغلاس للحظة؟"

تبعته بوجه ممتعض. جلست السيدة بتحفظ. لقد حزنت لحزنها في غرفة الجلوس لأن قسمات عينيها المتوسلة عدم تجاوب.

"أتخشى أنك تعتبرني امرأة متحجرة القلب وبلا إحساس؟" قالت.

هززت كتفي. "هذا ليس من شأني" أجبت.

"ربما ستنصفني في يوم ما. لو أنك فقط تدرك–"

"لا داعي ليدرك الطبيب واطسون أي شيء" قاطعها باركر فوراً: "كما قال هو بنفسه هذا ليس من شأنه."

"بالضبط" قلت: "ولهذا سأعتذر منكم لأتابع جولتي."

"لحظة حضرة الطبيب" صاحت بصوت متوسل: "هناك سؤال تستطيع وحدك الإجابة عليه دون كل العالم أجمع قد يشكل هذا فرقاً كبيراً لدي. أنت تعرف السيد هولمز وعلاقته بالشرطة أكثر من أي شخص آخر. لو افترضت أن مسألة ما قد قدمت إليه من باب الثقة والسرية، هل من الضروري أن يسرد هذه المسألة لأصدقائه المتحريين؟"

"هذا صحيح" أجاب باركر فوراً مجدداً: "هل هو يعمل لحسابه أم أنه معهم تماماً؟"

"أنا حقاً لا أعرف إن كان يحق لي أن أتناقش بهذا السؤال."

"أتوسل إليك – نتوسل إليك أن تفعل، حضرة الطبيب واطسون! أؤكد لك أنك ستساعدنا بهذا كثيراً – ستساعدني كثيراً إذا أرشدتنا بهذه النقطة."

كان هناك صدق وتوسل بصوتها ما دفعني لنسيان أنها قد أخطأت ووددت مساعدتها.

"السيد هولمز محقق مستقل" قلت: "إنه سيد نفسه، وسيعمل وفقاً لمذهبه الخاصة. وبنفس الوقت سيشعر بالولاء للمفتشين الذين يعملون معه بنفس القضية، ولن يخفي عنهم أي شيء قد يساعدهم على كشف مرتكب الجريمة. أكثر من هذا لا أستطيع أن أضيف أي شيء، وسأطرح المسألة على السيد هولمز إذا رغبتما بذلك."

قلت هذا وابتعدت عن مكاني، حين استدرت رأيتهما لا يزالان يتحدثان مع بعضهما البعض ويشيران نحوي، فلا شك أن موضوع الحديث كان مقابلتنا هذه.

"لا أرغب بثقتهما" قال صديقي حين أخبرته ما حدث بعد عودته إلى الفندق: "لا أريد ثقتهما، واطسون، لأن المسألة قد تكون محرجة إذا وصل الأمر إلى الاعتقال بتهمة التآمر والقتل."

"أتعتقد أن الأمر قد وصل إلى ذلك؟"

"يا عزيزي واطسون، حين أنهي من طعامي سأعطيك لمحة عن القضية بأكملها. لا أقول أننا قد حسمنا كل العقد... لكن حين نكتشف وزن الرياضة المفقود."

"وزن الرياضة المهمل؟!"

"هل من الممكن أنه لم يخطر ببالك أن القضية كلها تتعلق بالدمبل المفقود؟ لا بأس، لا بأس، لا داعي للتظاهر بالتكدر والانزعاج، فكلاهما يبس، كلا المفتشين لا يعرفان ذلك أو يشكان بأهمية هذا الحدث التافه. تصور المنحنى الذي ستأخذه الأحداث... الخطر الدائم بكسر وعطب العمود الفقري بشيء صلب، واطسون، صلب!"

راقبته وهو يتابع طعامه بشهية وأدركت أنه قد وصل إلى الحل بقضيته وانتظرت بصبر إلى أن ينتهي ليعطيني التفاصيل.

"إنها كذبة واطسون – كذبة كبيرة مشينة غير معقولة – هذا ما يقبع في بداية القصة. هذه هي نقطة الانطلاق. كل القصة التي ذكرها باركر كانت كذب بكذب. لكن قصته قد سبكتها السيدة دوغلاس، ولهذا فهي بدورها تكذب. كلاهما يكذبان وكلاهما مشتركان بالمؤامرة. ولهذا الآن أمامنا مشكلة واضحة. لماذا يكذبان، وما هي الحقيقة التي يحاولان بلهفة أن يخفيانها؟ لنحاول واطسون، أنا وأنت، إذا كان بإمكاننا اختراق الكذبة وإعادة رسم الحقيقة.

كيف تعرف أنهما يكذبان؟ لأنها حبكة تافهة من غير الممكن أن تكون حقيقية. اعتبر حسب القصة التي أعطوها، أن مرتكب الجريمة كان أمامه دقيقة واحدة فقط لينتزع خاتم الزواج الذي كان

أسقط خاتم آخر من يد الرجل الميت، وأن يعيد الخاتم الآخر إلى مكانه... شيء ما كان يفعله مجرم مطلقاً... وأن يضع تلك البطاقة بحسب الجثة. أقول إن هذا كان مستحيلاً. قد تجادل... وأنا متأكد أنك لن تفعل — أن الخاتم قد انتزع قبل موت الرجل. حقيقة الشمعة التي بقيت على إصبعها فترة طويلة تؤكد أن العلاقة بين القاتل والقتيل لم تكن مطولة. هل دوغلاس، الرجل الذي سمعنا عن جرأته وشجاعته سيسلم خاتم زفافه بلحظات قصيرة؟ لا، لا، واطسون. لقد كان برفقة القتيل لبعض الوقت والمصباح مضاء. هنا ليس عندي أي شك. لكن من الواضح أن طلقة السلاح كانت سبب الوفاة. لذا قد صدرت قبل وقت طويل مما أخبرونا به. لكن لا يوجد خطأ حول هذه القضية نحن في الحاضر. لأننا نتحدث عن مؤامرة بين الأشخاص الذين سمعوا صوت الطلقة بين الرجل باركر والمرأة دوغلاس. وحين اكتشفت فوق كل ذلك أن بقع الدم على النافذة كانت متعمدة حتى يعطي باركر تلميحاً خاطئاً للشرطة. ستعترف أن القضية تلتف حوله.

الآن علينا أن نسأل أنفسنا متى حدثت الجريمة حقاً. حتى الساعة العاشرة والنصف كان الخدم لا يزالون يتجولون داخل المنزل. إذاً بالطبع لم تحدث الجريمة قبل هذا الوقت. في الحادية عشرة إلا الربع ذهب الجميع إلى فراشهم باستثناء أميس الذي كان في الحديقة الخلفية. جربت بعض التجارب بعد رحيلك ووجدت أنه مهما صدر ماكدونالد من ضجة داخل غرفة المكتب فلم أتمكن أن أسمعها أنا من الحديقة إذا ما كانت الأبواب مغلقة. الأمر يختلف بالنسبة لغرفة مدبرة المنزل. فهي ليست بعيدة عن

غرفة المكتب ومن غرفتها استطاعت سماع صوت صفقت حين أصدر ماكدونالد صوت صيحة عالي حين خرج من غرفة المكتب. وهكذا فصوت الطلقات لم يكن عالياً جداً ولكن بالسكون الذي كان مسيطراً على المنزل فلا شك أن الصوت قد وصل إلى غرفة المربية لكنها، كما قيل لنا، شبه صماء أو ضعيفة السمع. لكنها ذكرت بشهادتها أنها سمعت صوتاً كصوت انصفاق الباب قبل نصف ساعة من صدور جرس الإنذار. قبل نصف ساعة من إطلاق الإنذار أي الساعة الحادية عشر إلا ربع. لا شك عندي أن ما سمعته كان صوت إطلاق النار، وأنه بهذا الوقت الذي ذكرت حدثت الجريمة. إذا كان هذا صحيحاً، فعلينا معرفة مكان تواجد السيد باركر والسيد دوغلاس، افتراضاً أنهما ليسا المجرمين، في الساعة الحادية عشر إلا الربع، حين أحضرهما صوت الطلقات إلى الطابق السفلي، حتى الساعة الحادية عشر والنصف لحظة أن دق السيد باركر جرس الإنذار. ما الذي كانا يفعلانه بهذا الوقت الضائع ولماذا لم يدق جرس الإنذار على الفور؟ هذا هو السؤال الذي يواجهنا، وحين نجيب عنه نكون قد قطعنا نصف المسافة نحو حل القضية."

"أنا مقتنع بنفسي" قلت: "إن هذين الاثنين تفاهما بينهما. لا شك أنها امرأة بلا قلب لتجلس وتضحك بعد ساعات من موت زوجها بطريقة رهيبة."

"بالضبط، هي لم تبدو كزوجة حتى أدلت بشهادتها. لست معجباً بجنس النساء بشكل عام، كما تعرف يا واطسون، لكن تجاربي في الحياة علمتني أن عدداً قليلاً فقط من النساء يقفن بكلام أي رجل يحول

بينهن وبين رؤيتهن لزوجهن الميت. كان هذا تمثيلاً مسرحياً فاشلاً لأنه حتى أبسط المحققين سيصدمه لعدم رؤيته لحزن الزوجة وحبيبها. حتى ولو لم يكن هناك أي علامات أخرى فهذا وحده كان كافياً لإثارة الشكوك حول وجود مؤامرة ما."

"أنت متأكد إذاً أن السيد باركر والسيدة دوغلاس هما المذنبان بهذه القضية؟" سألت.

"هناك صراحة ووضوح مباشر في سؤالك" قال صديقي: "لقد أتيت إلي كالرصاصة إذ قلت لي أن السيدة دوغلاس والسيد باركر يعرفان تفاصيل الجريمة لكنهما يخفيانها. فأستطيع حينها أن أعطيك جواباً واحداً. لنفكر الآن بالمصاعب التي تقف بطريقنا. سنفترض أن هذين الشخصين مرتبطان برباط الحب المدنس وأنهما قد قررا التخلص من الرجل الذي يقف عقبة بطريقهما. إنه افتراض كبير، لأن استفساراتي وتحقيقاتي مع الخدم لم تؤكد هذا الشيء. على العكس هناك أدلة كثيرة تشير أن آل دوغلاس كانا على علاقة وثيقة وقوية مع بعضهما البعض."

"هذا من غير المعقول أن يكون حقيقياً." قلت وأنا أفكر بذلك الوجه الباسم في الحديقة.

"حسناً، هذا هو الانطباع الذي كانا يعطيانه. على كل حال، سنفترض أنهما شخصان غير عاديين، خدعا كل من حولهما بهذه النقطة وتآمرا على قتل الزوج كان رجلاً يحوم حول رأسه الخطر."

"عندنا كلمتهم هم فقط بهذه النقطة."

بدأ التفكير عن هولمز. "أرى واطسون أنك بدأت تتصور أن كل ما قلناه كان كذباً. بالنسبة إليك لا يوجد أية جمعية سرية أو أي خطر مخفي أو وادي خوف أو رئيس أو أي شيء آخر. لا بأس. سنفترض أن ما تقوله صحيحاً. لنرى إلى أين سيوصلنا هذا. احتوت هذه القصة على الجريمة. ثم سمحوا بلعبهم بتركهم تلك الدراجة في الحديقة. سقطة على الصدفة تقف بصف الفكرة. كذلك الأمر مع الطلقة. كل هذا يتناسب مع تصورك واطسون. والآن نصل إلى الزاوية الشريرة. قطع صغيرة لا تلائم مكان وجودها. هذا السلاح المدوي من بين كل أنواع الأسلحة ونوع أمريكي بالذات؟ كيف تأكدنا أن صوت الطلقات القوي لن يسمع ويجلب أحد الخدم إلى مكان الجريمة؟ إنه مجرد الصدفة. أن السيدة ألن لم تغادر غرفتها لتستفسر حول سماعها لصوت الباب المصفوق. لماذا يفعل الشخصين المذنبين برأيك هذا؟"

"أعترف أنني لا أملك أي تفسير."

"إذاً، مجدداً، إذا خططت امرأة وعشيقها لقتل الزوج، هل سيعلنان بوضوح عن ذنبهما وفعلتهما بإخفاء خاتم الزواج بعد موته؟ هل تجد هذا الأمر منافياً للمنطق؟"

"أجل إنه كذلك."

"إذا كانت فكرة الدراجة مخبأة في الحديقة قد خطرت ببالك، هل ستستحق هذه الفكرة التفكير رغم المعرفة البسيطة أن أغبى المحققين سيجد بهذا التصرف عبثاً وعملاً متصليين للعدالة نظراً لأنه لن يتمكن من استعمال هذه الوسيلة للهروب بعد رفع الجسر؟"

"لا شرح عندي أيضاً."

"لكن لا يوجد أي صلة لا يستطيع العقل البشري أن يصل إليها. كمجرد نشاط عقلي فقط. دعني إذا أعطيتك خطاً ممكناً من التفكير. كل ما أقوله و أعترف أنه مجرد خيال ولكن الخيال هو أصل الحقيقة معظم الأحيان. سنفترض أنه كان هناك سر مذنب، سر مشين فعلاً، بحياة الرجل المدعو دوغلاس. هذا يؤدي إلى الجريمة التي يرتكبها المنتقم المجهول – شخص من خارج الدرب. هذا المنتقم ولسبب أعترف أنني لا أزال أجهله، يأخذ خاتم زفاف دوغلاس. الشريط قد يعود إلى زواجه الأول ولربما قد أخذ منه لنفس السبب. قبل هروب المنتقم وصل باركر والزوجة إلى الغرفة. المجرم أقنعهم أن أي محاولة لاعتقاله ستؤدي إلى كشف فضيحة مخفية. اقتنعا بهذه الفكرة وفضلا إطلاق سراحه. لهذا السبب لربما قد أنزلا له الجسر، الشيء الذي يتم بدون أي ضجة، ثم رفعاه مجدداً. هرب القاتل. ولسبب ما رأى أنه من الآمن الهروب سيراً على الأقدام وليس باستعماله الدراجة. ولهذا فقد ترك الدراجة في المكان الذي لن يكتشف إلا بعد وصوله إلى بر الأمان. على كل حال نحن لا نزال ضمن مجال الاحتمالات، صحيح؟"

"هذا ممكن، بدون شك" قلت بتحفظ.

"علينا أن نتذكر واطسون، أنه مهما كان ما حدث فقد حدث بطريقة غير عادية. الآن، لنتابع سلسلة فرضياتنا. الشخصين ليس من الضرورة أن يكونا مذنبين. أدركا بعد هروب المجرم أنهما قد وضعا أنفسهما بموقف محرج حيث سيكون من الصعب عليهما برهنة عدم

اشتركها بجرم أو ارتكابها له. بسرعة وبغباء خصص. وضع ... الدم على ... ليوهم الشرطة بأن المجرم هرب عبر ... لا شك أنها وحدها من سمع صوت الطلقات ولكنها أطلقت الإنذار بعد نصف ساعة من حدوث جريمة."

"وكيف تنوي أن تبرهن كل ذلك؟"

"إذا كان هناك دخيل فإن ستتبع أثره دون شك. هنا، سيكون أفضل البراهين. لكن إذا لم تنجح – لا بأس مصدر العلم ليست مرهقة. أظن أن أمسية هادئة لي بمفردي بذلك المكتب ستعطيني الكثير."

"أمسية بمفردك؟"

"أقترح أن أذهب إلى هناك مباشرة. لقد دبرت هذا مع أميس. إنه غير مرتاح تماماً لبيركر. سأجلس بتلك الغرفة وأرى ماذا سيعطيني جوها من إلهامات. أنت تبتسم واطسون. لا بأس، سنرى. على فكرة، ألا زلت تملك تلك المظلة الكبيرة؟"

"إنها هنا."

"لا بأس. سأستعيرها، إذا سمحت لي."

"بالتأكيد – لكن يا له من سلاح فقير! إذا واجهت أي خطر –

"لا شيء جدي يا عزيزي واطسون، وإلا لكنت استعنت بمساعدتك. لكني سآخذ المظلة في هذا الوقت أنا بانتظار عودة زملائي من المحلات التي تبيع الدراجات."

حل الظلام قبل وصول المفتش ماكدونالد ووايت ميسون من رحلتهما، ووصلا مرهقين بأخبار طيبة وجيدة لتحقيقنا.

"يا رجل أعترف أني كنت أشك بوجود دخيل من الخارج" قال ماكدونالد: "لكن كل هذا أصبح من الماضي الآن. لقد حددنا مكان شراء الدراجة وحصلنا على أوصاف الرجل وهكذا، فقد حصلنا خطوة كبيرة."

"تبدو هذه بداية نهاية" علق صديقي: "أنا أهنئكما سوياً من أعماق قلبي"

"حسناً، لقد بدأت بحقيقة أن السيد دوغلاس كان مضطرباً ومتوتراً في اليوم السابق للجريمة، حين كان يتسوق. وهناك في السوق أدرك بوجود خطر حوله. فكان من المنطقي أنه إذا حضر رجل على الدراجة فلا شك أنه حضر من سوق تونبردج ويلز. أخذنا الدراجة معنا وعرضناها على كل الفنادق. تعرف عليها مدير فندق "إيغل كومرشال" وقال أنها تعود إلى رجل يسمى هارغريف. كان قد استأجر غرفة قبل يومين عنده. هذه الدراجة وحقيبة صغيرة كانا كل ممتلكاته. سجل اسمه على أنه قادم من لندن، لكنه لم يسجل أي عنوان. لكن لهجة الرجل أميركية واضحة."

"حسن، حسن" قال صديقي بفرح: "لقد قمت بعمل رائع وأساسي، سيد ماك. ألم يكن هناك أية علامات فارقة لهذا الرجل؟"

"القليل جداً فقط ومن الواضح أنه كان حريصاً ومتكتماً على هويته. لم يكن هناك أية علامات على ملابسه. خريطة منطقتنا كانت موجودة

على طاولته. كان قد ترك الصدق بعد المصور صبح الدراجة على درجته، ولم يسمع أي شيء عنه بعد ذلك."

"هذا ما يحيرني، سيد هولمز" قال وايت ميسون: "لو أن الرجل لم يكن يريد إثارة الشكوك حوله لكان عاد إلى الصدق وبقي فيه كأي سائح عادي. لكنه وبهذه الحالة أدرك أن الشرطة ستجد الدراجة وتلف بدورها على الفنادق وأن اختفاءه سيرتبط بحدوث الجريمة.

"هذا ما قد يتخيله البعض. لكنه ذكي حتى الآن لأنه لم يقع بيد العدالة بعد. لكن أوصافه – كيف هي؟"

عاد ماكدونالد إلى دفتر ملاحظاته. "هنا هو الوصف الذي حصلت عليه. كان بطول متوسط، بعمر الخمسين أو ما يقارب ذلك، شعره رمادي قليلاً. وشارب رمادي. أنف معقوف ووجه قاسي الملامح ومتصلب."

"يا له من وصف، إنه يكاد ينطبق على وصف السيد دوغلاس نفسه" قال صديقي: "إنه بنفس العمر بشعر وشارب رمادي وبنفس طول القامة. هل توصلت لأي شيء آخر؟"

"كان يرتدي بزة رمادية ومعطف طويل وقبعة صغيرة.

"ماذا حول البندقية؟"

"إنها متوسطة الطول ويستطيع بكل سهولة أن يخفيها تحت معطفه."

"وكيف تتخيل سيساعدنا هذا بقضيتنا؟"

"حسناً سيد هولمز" قال ماكدونالد: "حتى نقبض على رجلنا – ونتأكد أننا سنفعل لأنني أرسلت برقية بأوصافه لكل دوائر الشرطة – سنتمكن من الإجابة على هذا السؤال. لكن حتى هذه النقطة فنحن قد قطعنا شوطاً بالقضية. نعرف أن شخصاً أمريكياً يدعو نفسه هارغريف وصل إلى بيرلستون قبل يومين بدراجته. كان يحمل معه سلاح قتل وبهذا فمجيئه إلى هنا كان بقصد القتل المتعمد. الدراجة انطلق إلى هدفه وسلاحه مخبأ تحت معطفه. لم يره أحد يصل، حسب علمنا، وحتى ولو مر عبر القرية فلن ينتبه له أحد لأن هناك كثير من الدراجين فيها. وصل وأخفى دراجته في الحديقة ورأى الجسر يرتفع فقدرت أن هروبه الوحيد سيكون عبر النهر. انتظر حتى الساعة الحادية عشرة والنصف، إلى أن وصل دوغلاس إلى غرفة المكتب بجولته الليلية المعتادة. أطلق النار عليه وهرب كما هو مخطط. أدرك أن مدير الفندق والعمال سيتعرفون عليه وسيكون هذا دليلاً ضده، فتركها مكانها وعاد إلى لندن بوسيلة نقل أخرى أو ذهب إلى مكان آمن آخر كان قد دبره من قبل. ما رأيك سيد هولمز؟"

"جيد، سيد ماك، إنه تصور واضح كما سردته. تلك هي نهاية قصتك. نهايتي هي أن الجريمة قد تمت قبل نصف ساعة من الوقت التي حددته قصتك، السيدة دوغلاس والسيد باركر متآمرون على إخفاء بعض الأمور المتعلقة بمقتل السيد دوغلاس، أو أنهم قد ساعدوا مرتكب الجريمة على الفرار، أو على الأقل قد وصلا إلى الغرفة قبل هروبه، وأنهما قد دبرا وضع أدلة على هروبه عبر النافذة بينما الاحتمال

الأصح أنه ساعداه على مغادرة المنزل يربطه للجسر ثم رفعه بعد وصوله إلى الضفة المقابلة. هذه فرضيتي للصف الاول."

الحفتين هزًّا رأسيهما.

"حسناً، سيد هومر، إذا كان ما تقوله صحيحاً فهذا يعني أن قد انتقل من نهر إلى آخر" قال ماكمولان.

"وبطريقة ما النهر الثاني أسوأ من الأول" أضاف صديقي: "أنوي القيام بتحقيق خاص بنفسي هذه الليلة، وقد أتمكن من التوصل إلى تفسير منطقي لهذا السبب."

"هل نستطيع مساعدتك، سيد هومر؟"

"لا، لا، الظلام ومطلة الطبيب واطسون. مصاحبي بسبطه. وأمس - أمس الخميس - لا شك أنه سيساعدني. كل خطوط أفكاري تقودني إلى السؤال الأساسي الوحيد - لماذا يحاول روحي المحافظة على ياقته الجسدية باستعمال آلة غير طبيعية كالماس الواحدة؟"

كان الوقت متأخراً حين عاد هولمز إلى غرفتنا من جولته المنفردة. كنت غارقاً في النوم لكنني استيقظت على صوت وصوله.

"هولمز" تمتمت: "هل توصلت إلى أي شيء؟"

وقف بجانبي بصمت وشمعته بين يديه ثم انحنى بقامته الطويلة نحوي "أنوف واطسون" قال بهمس: "هل ستشعر بالخوف من النوم في غرفة واحدة مع شخص مجنون، مختل عقلياً وغير متحكم بأعصابه؟"

"لا أبداً" أجبته بذهول.

"آه، هذا مصدر حظ" قال ولم ينطق أي كلمة أخرى تلك الليلة.

الفصل السابع

الحل

صباح اليوم التالي وجدنا المفتشين ماكدونالد ووايت ميسون جالسين في القاعة الصغيرة داخل مركز الشرطة. أمامهما على الطاولة كان هناك كومة من الرسائل والبرقيات، كانوا يصنفونها ويتفحصونها. ثلاثة أوراق كانت موضوعة على جانب واحد.

"ألا تزالون تلاحقون صاحب الدراجة؟" سأل هولمز بمرح: "ما هي آخر أخبار الهارب؟"

أشار ماكدونالد إلى كومة الأوراق أمامه.

"هو شوهد في لايسيستر، ونوتنغهام، ساوثهامبتون، ديربي، إيست هام، ريتشموند وأربعين مكاناً آخر. بثلاثة من هذه الأماكن – إيستهام، لايسيستر وليفربول – كان هناك حكمٌ ضده وقد اعتقل فعلاً. يبدو أن البلاد ممتلئة بالهاربين ذوي المعاطف الطويلة."

"يا إلهي" قال صديقي بتعاطف: "والآن، سيد ماك وسيد وايت ميسون، أريد أن أعطيكما نصيحة ذهبية. حين شاركت بهذه القضية معكما، وعدت كما تذكران، بعدم إعطائكما أنصاف النظريات، ولهذا لهذه اللحظة لن أعطيكما كل ما يدور برأسي. من ناحية أخرى، قلت لكما أنني سأشارككما بالعمل معكما ولا أظن أنه من العدل أن أسمح لكما بتضييع الوقت بعمل غير منتج. ولهذا أنا هنا لأنصحكما هذا الصباح ونصيحتي تتلخص بكلمتين: اتركا القضية."

حدق امنتشان بزميلها بعدم تصديق.

"تعتبر القضية ميؤوس منها!" صاح ماكدونالد.

"أعتبر قضيتكم ميؤوس منها. لا أعتبر أنه من اليأس التوصل إلى الحقيقة."

"لكن هذا النزاح. إنه ليس احراج. معنا أوصافه، حقيبته، دراجته. الشخص موجود في مكان ما. لم لا نحاول القبض عليه؟"

"أجل، أجل. لا شك أنه في مكان ما ولا شك أننا سنقبض عليه. لكني لا أريدكما أن تضيعا وقتكما في إيستهام أو ليفربول. أنا واثق أن أمامنا طريقاً مختصراً للوصول إلى النتائج."

"أنت تخفي عنا شيئاً. هذا ليس عدلاً منك سيد هولمز" قال المحقق بانزعاج.

"تعرف أساليبي في العمل سيد ماك. لكني سأخفي بعض الامور عنكم لفترة قصيرة فقط. أنا آمل برهنة تفاصيلي بطريقة أو بأخرى. وبأقصر وقت ممكن بعدها أودعكم وأعود إلى لندن، تاركاً نتائجي بتصرفكم. أنا أدين لكم بالكثير لأتصرف بطريقة أخرى، لأنه بكل قضاياي السابقة لم أمر بقضية مثيرة ومميزة مثل هذه."

"لا أستطيع أن أفهم هذا سيد هولمز. لقد رأيناك ليلة عودتنا من تونبريدج ليلة البارحة وكنت موافقاً على النتائج. ما الذي حدث بعد ذلك وأعطاك فكرة جديدة تماماً عن هذه القضية؟"

"حسناً، طالما أنت قد سألتني، لقد قضيت البارحة بعض الساعات داخل منزل آل دوغلاس."

"وماذا بعد؟"

"أستطيع فقط أن أعطيكم رداً عاماً على هذا السؤال بهذا الوقت. على فكرة كنت أقرأ تقريراً موجزاً وبسيطاً حول ذلك البناء الذي اشتراه أولاً أحد تجار البن في المنطقة بسعر بخس" تناول من جيبه صورة المبنى وتابع: "هذا يضفي على التحقيق المتعة، حيث نسترجع اللمحة التاريخية الخاصة بالمكان. لا تفقدوا قليلاً الصبر لأني أؤكد لكم أنه مجرد السرد التاريخي يعطيك تصوراً عن الماضي. سنبدأ ببعض الأحداث التاريخية المتعلقة بالمنزل فقد زاره الإمبراطور جورج الثاني وكان مسكن أحد الكولونيلات يسمى تشارلز عام 1644، أثناء الحرب الأهلية*."

"سيد هولمز، أنا أحترم كثيراً كل ما تقول لكن أرجوك اقترب من مقصدك بطريقة مباشرة وليس بالالتفاف حول الزاوية" قال ماكدونالد.

"حول الزاوية؟ ما بك؟ عزيزي ماك، ها هو مزاجك السيء يظهر للمرة الأولى. لا بأس لا بأس. سأترك الماضي ونتحدث عن الحقائق الحاضرة. لقد ذهبت البارحة إلى المنزل، كما قلت، لم أقابل لا السيد باركر ولا السيدة دوغلاس. لم أرى داعي لإزعاجهم. لكني سررت حين سمعت أن السيدة لم تكن تتأوه أو تنتحب على وفاة زوجها وأنها قد تناولت وجبة دسمة وبشهية على العشاء. زيارتي كانت مخصصة للعجوز أميس الطيب، والذي تبادلت معه بعض الأحاديث التي سمح لي بعدها بالتجول إلى غرفة المكتب والبقاء بداخله لبعض الوقت دون أن يطلع أحد على ذلك."

"ماذا، ماذا فعلت؟" سألته بذهول.

"لا، لا، كل شيء الآن على حاله في الجريمة. فقد أعدت كل شيء إلى مكانه الطبيعي، وقد قضيت بالداخل نصف ساعة خلّاقة."

"ما الذي كنت تفعله؟"

"حسناً، لأبسط الغموض أقول إنني كنت أبحث عن المهمل بين هذه الأدلة الرئيسية كان له أهمية كبرى بتحقيقي بالقضية. وانتهيت بوجودي له."

"أين؟"

"آه، هذا يصل إلى حافة بعيد مكتشف. دعني أستمر بالحديث القليل بعد وعدكم أنكم ستشركوني بكل ما أعرفه."

"لا بأس نحن مضطرون لنفعل وفق معاييرك" قال المفتش: "لكن حين يصل الأمر إلى الطلب منا التخلي عن القضية – لماذا، بحق الرب، علينا ترك القضية؟"

"السبب البسيط، يا عزيزي مالك، أنه ليس لديكم أدنى فكرة عما هي القضية التي تحققون بها."

"نحن نحقق بقضية قتل السيد جون دوغلاس من بيرلستون."

"أجل، أجل، هذا صحيح. لكن لا تزعجوا أنفسكم بملاحقة الرجل الغامض صاحب الدراجة. أؤكد لكم أن هذا لن يساعدكم."

"إذاً ماذا تقترح أن نفعل؟"

"سأقول لكم بالضبط ماذا عليكم أن تفعلوا إذا وافقتم على ذلك."

"لا بأس، لطالما أدركت أن هناك منطق خلف أساليبك الغريبة. ولهذا فسأنفذ ما تطلبه."

"وماذا عنك، سيد وايت ميسون؟"

نظر محدقاً وايت ميسون من أحدهم إلى الآخر بعجز. هولمز وأسئلته كانت جديدة بالنسبة إليه. "حسناً، ما دام المفتش ماكدونالد موافق فأنا بدوري لن أفعل إلا مثله."

"ممتاز" قال هولمز: "إذاً سأعطيكم نصيحة بالقيام بجولة في الهواء المنعش. يقولون لي أن المنظر من جسر بيرلستون رائع. لا شك أن تناول الغداء في مطعم صغير سيكون أمراً ممتعاً. في المساء، رغم التعب ستكونان سعيدان"

"يا رجل تبدو هذه مثل مزحة" صاح ماكدونالد ونهض من مكانه بغضب.

"لا بأس، اقضوا النهار كما تريدون" قال هولمز مربتاً على كتف المفتش بمرح: "فعلا ما يحلو لكم واذهبوا إلى المكان الذي ترغبون به، لكن لاقياني هنا قبل المغيب – قبل المغيب، سيد ماك."

"هذا يبدو أكثر تعقلاً."

"كانت نصيحة ذهبية فعلاً. لكني لا أصر على ذلك طالما أنكما ستكونان هنا قبيل المغيب. لكن الآن، قبل رحيلكم، أريد أن ترسلا ملاحظة للسيد باركر.

"أجل؟"

"سأمليها عليكم إذا أحببتم. مستعدون؟" تابع صديقي قائلاً:

"سيدي – لقد خطر ببالي تجفيف بحيرة حول المنزل، على أمل أن نجد."

قال ماكدونالد "لقد أجريت استفساراتي."

"يا عزيزي أليك، لو سمحت، افعل ما أقوله لك."

"حسناً، تابع."

"—أي شيء يساعدنا في تحقيقنا. لقد قمت بالترتيبات اللازمة. ولعل سيدعون عند صباحه بتجفيف بحيرة وكذلك الخندق ولهذا فرأيت إطلاعك مسبقاً على هذا الأمر" وقد وقع هذا وأرسله إلى السيد باركر حوالي الساعة الرابعة. بذلك الوقت ستتلقى محدداً هـ. حتى ذلك الحين افعلا ما يحلو لكما وسأفعل بدوري ما يحلو لي."

وصل المساء أخيراً ووصل عشيتين. كان هولمز جدياً، أما صوتي والمحققان فاقدين ومرتبكين.

"حسناً، حضرة السادة" قال صديقي. "أطلب منكم الآن أن تسمحوا لي جيداً، وستحكمون بأنفسكم على ما توصلت إليه من استنتاجات. الطقس بارد وستصطحبكم بجولة اكتشاف صعبة، لذا من الأفضل أن ترتدوا معاطفكم الثقيلة. من المهم جداً أن نكون في مواقعنا قبل حلول الظلام، ولهذا بعد إذنكم، سننطلق فوراً."

مشينا نحو منزل آل دوغلاس ونحن نسير خلف هولمز ودخلنا المكان ثم اختبأنا خلف سور من الشجيرات والأشجار المطلة مباشرة على مدخل المنزل والجسر المتحرك. الجسر كان لا يزال مرفوعاً.

"إذاً، ما الذي سنفعله الآن؟" سأل ماكدونالد.

"نسي أنسب بالصبر وبصدر أقل فعة بمكة" أجاب هولمز.
"لماذا كل هذا من الأسس؟ أرى أن عليك معاملتي ببعض
الوضوح."
ضحك صديقي. "واطسون يصر أني كاتب دراما بعد خيبة"
قال: "شيء في ما يدعوني يدفعني لتصنيع العرض المسرحي الكامل.
بالطبع عمل، سيد ماك، سيكون جافاً ومملاً إذا لم نجهز عروضاً تدهش
بنتائجها. الآن عليك الانتظار بترقب الصيد المنتظر بفريسته. أين
سيكون هذا الترقب المشوق إذا أعطيتكم كل شيء؟ أطلب منكم فقط
بعض الصبر، سيد ماك، وسيتضح كل شيء لكم."
"حسناً، أتمنى أن تصل بنا لنتائج المدهشة التي تقول عنها قبل أن
نموت من البرد" قال ماكدونالد بمرح.
بدأ الظلام ينتشر وخيالات المنزل تصبح أمامنا أحدث تركيز أكثر
فأكثر.
"كم سيدوم هذا؟" سأل المفتش فجأة: "ما هو الشيء الذي
نراقبه؟"
"لا معرفة عندي أكثر منكم عن الوقت الذي علينا الانتظار به"
أجاب صديقي: "لو أن كل المجرمين يحددون مسار جرائمهم بوقت محدد
لهان الأمر علينا جميعاً أما في ما يتعلق بالشيء الذي – حسناً، ذاك ما
نحن بصدد مراقبته!"
فيما هو يتحدث ضوء غرفة المكتب أظهر شخصاً بداخله وهو يمشي
جيئة وذهاباً. المكان الذي كنا نراقبه كان موقعاً منخفضة تماماً. بعد

الوقت فتحت النافذة، ورأيت رأس وكتفي رجل يطل منها. للحظات حدق عبر الحديقة، بدا كأنه يريد أن يتأكد أن أحداً لا يراقبه. ثم خرج من النافذة، خطوات ورأيناه يقفز إلى الماء، بدا وكأنه كان يبحث أسفل المياه بشيء ما كان يمسكه بيده. ثم فجأة رفع شيئاً ما من المياه كالصياد الذي يلتقط السمكة. الشيء كان مستديراً وغير واضح الملامح من مكاننا.

"الآن!" صاح هولمز "الآن!"

نهضنا فوراً وتبعناه بركضه السريع، قطعنا الجسر وأخذ هولمز يدق على الجرس بقوة. فتح أميس المندهش الباب فأزاحه هولمز فوراً وهرع نحو غرفة المكتب، فتح الباب ودخلنا وبهر الضوء عيوننا للحظة ثم رأيت وجه سيسيل باركر الضعيف وعيونه الشريرة.

"وماذا يعني هذا بحق السماء؟" صاح "عن ماذا تبحثون على كل حال؟"

جال هولمز بنظره بسرعة حول الغرفة ثم اتجه نحو صرة مبللة كانت على الأرض تحت الطاولة.

"هذا ما نبحث عنه، سيد سيسيل باركر. هذه الصرة، المحتوية على [illegible]، والتي رفعتها للتو من المياه."

حدق باركر بهولمز بذهول. "كيف بحق السماء توصلت لمعرفة ذلك؟" سأل.

"لأنني بكل بساطة قد وضعتها هناك."

"أنت وضعتها هناك! أنت!"

"لربما كان علي القول: أنني قد استبعدت مكانه هناك" قال هولمز: "تذكر، حضرة المفتش ماكدونالد، أنني قد اندهشت لعدم وجود المثقل الآخر. وقد علقت على ذلك ولكن في خضم الأحداث لم تنتبه إلى هذا الأمر وإلا لكنت توصلت إلى النتائج نفسها. حين تكون المياه قريبة ووزن ثقيل مفقود فليس من الصعب الإدراك أن الوزن قد استعمل لإخفاء شيء ما تحت المياه. الفكرة على كل حال كانت تستحق التجربة، هكذا وبمساعدة أميس الذي أدخلني إلى الغرفة وبمساعدة مظلة واطسون استطعت أن أصطاد هذه الرزمة. كان من الأهم معرفة هوية الشخص الذي وضعها هناك. ولهذا فقد أرسلنا الملاحظة بتجفيف المياه وهكذا الشخص الذي أخفى الصرة فسيحاول الحصول عليها وتغيير مكانها، وسيقوم بهذا تحت جنح الظلام طبعاً وبهذا فالكلمة الآن للسيد باركر."

وضع شرلوك هولمز الرزمة على الطاولة وفتحها. تناول منها أولاً المثقل الذي أبقى الصرة أسفل المياه. ثم تناول زوج من الأحذية الأميركية. ثم تناول منها سكيناً طويلاً وقاتلاً. ثم تناول رزمة من الملابس، ملابس داخلية، سترة رمادية، معطف طويل وقبعة صغيرة.

"الملابس عادية" قال صديقي: "باستثناء معطف المطر بالكثير من العلامات الموحية" قرب المعطف من الضوء: "هذا الجيب الداخلي كبير وطويل حتى يتسع للسلاح القاتل. عنوان الخياط على الرقبة نيل، وادي فيرميسا، الولايات المتحدة الأميركية، أجريت بعض الاستفسارات وأدركت أن وادي فيرميسا هو اسم لبلدة صغيرة أولى في

الفحم والمناجم في الولايات المتحدة الأميركية، وقد تكون زوجة السيد دوغلاس الأولى بالفعل من تلك المنطقة. حرفا .V. V على البطاقة قرب الجثة تعني وادي فيرميسا (Vermissa Valley) أو أن هذا الوادي هو نفسه الذي كان يسميه دوغلاس وادي الخوف. هذا واضح كفاية، والآن، سيد باركر، يبدو أنني أقف بطريق شرحك.

كان من المذهل مراقبة تغير ملامح وجه سيسيل باركر. الغضب، الذهول، الإحباط، والتصميم ظهر بالتتالي على وجهه. ثم أخيراً أخذ وجهه قناع السخرية الصلب.

"تعرف كل هذا، سيد هولمز. أرى عليك إطلاعاً على المزيد" قال بسخرية.

"لا شك عندي أنني أستطيع إخبارك بالمزيد، سيد باركر. لكن الأمر سيكون أفضل إذا صدر منك."

"آه، أنت تعتقد ذلك، صحيح؟ لا بأس، كل ما أستطيع قوله بهذه الحالة أنه إذا كان هناك أي سر فهو ليس سري ولست أنا من أخفيه."

"إذا سرت على هذا الخط، سيد باركر" قال المفتش بهدوء: "فستبقيك تحت نظرنا حتى نحصل على مذكرة توقيف بحقك."

"تستطيع أن تفعل ما تريده بهذا" قال باركر بتحدي.

كل شيء بدا في وجه الغرسي كان يقول أنه لن ينطق أية كلمة إضافية مهما كانت محاولات الشرطة بالتحقيق معه، وبدا أن كل شيء قد انتهى لولا وصول صوت أنثوي إلى الآذان.

"لقد قمت بالكافي لأجلنا، سيدي" قالت السيدة دوغلاس التي كانت تستمع لنا منذ مدة خارج باب الغرفة. "وما حصل في المستشفى فقد قمت أنت بما يكفي."

"الكافي وأكثر من الكافي" علق شرلوك هولمز بصدق: "أنا متعاطف تماماً معك سيدة دوغلاس، وأنصحك بشدة أن تثقي بعدالة محكمتنا وأن تثقي أكثر بالشرطة. ربما أنا نفسي لم أفهم التلميح الذي أعطيتني إياه عبر صديقي الطبيب واطسون، لكن بذلك الوقت كان عندي كل الأسباب التي تجعلني أعتقد أنك متورطة بالجريمة.

الآن أنا متأكد أن الأمر لم يكن كذلك. بنفس الوقت، لا يزال هناك الكثير الذي يحتاج للشرح وأطلب منك توصية السيد دوغلاس أن يشرح لنا قصته."

شهقت السيدة دوغلاس بذهول لكلمات هولمز. لا شك أنني والمحققين قد فعلنا الشيء حين رأينا الرجل يمشي نحونا وكأنه قد خرج من الحائط والذي اقترب الآن من الزاوية المعتمة التي ظهر منها. استدارت السيدة دوغلاس، وبلحظات كانت ذراعيها حوله. أمسك باركر بيد الرجل التي امتدت نحوه.

"هذا أفضل حال" رددت زوجته: "أنا واثقة أن هذا أفضل."

"بالفعل هذا صحيح سيد دوغلاس" قال شرلوك هولمز: "أنا واثق أنك ستجد هذا أفضل."

أخذ الرجل يرمش بعينيه بنظرة مذهولة. كان وجهاً مميزاً – عيون رمادية جريئة، شارب قصير قوي، ذقن مستديرة وفم مرح. نظر إلينا بدقة. لدهشتي، اقترب مني أنا وناولني رزمة من الأوراق.

"لقد سمعت عنك" قال بلكنة لم تكن أميركية أو انكليزية تامة، "أنت مؤرخ هذا العصر. حسناً، حضرة الطبيب واطسون، لم يسبق لك ورأيت قصة مثل التي بين يديك. أراهن بذلك بكل دروتي. اسرد القصة بطريقتك الخاصة. لكن هذه هي الحقائق ولن تدهش المرء قصة أروع من هذه. لقد قضيت يومين كاملين أكتب هذه الأوراق. مرحب بك لقراءتها أنت وجمهورك. هذه قصة وادي الخوف."

"ذاك هو الماضي، سيد دوغلاس" قال شرلوك هولمز بهدوء: "ما نرغب به الآن سماع قصتك الخاصة."

"ستحصل عليه سيد هولمز" قال دوغلاس. "هل أستطيع تدخين سيجارة فيما أنا أتكلم؟ شكراً لك. أنت بنفسك من المدخنين، إذ تدرك جيداً ستتصور كم سيكون الوضع صعباً لو جلست ليومين والتبغ معك دون أن تجرؤ على التدخين حتى لا تكشف الرائحة مكانك. لقد سمعت عنك، سيد هولمز، لم أتصور مطلقاً أني سألتقي بك. لكن حين تنتهي من تلك الأوراق – فستعرف أني قد أحضرت لك شيئاً مميزاً."

المفتش ماكدونالد كان يحدق بالقادم الجديد بكل ذهول ودهشة.

"حسن، هذا يفوق مستوى فهمي" صاح أخيراً. "إذا كنت أنت السيد جون دوغلاس مالك هذا المنزل فموت من كنا نحقق خلال هذين اليومين، ومن أين بحق السماء دخلت إلى هنا؟ بدا لي وكأنك خرجت من الحائط كالأشباح."

"آه، سيد ماك" رد هولمز وهو يهز إصبعه محذراً. "لم تكن مستعداً لسماع اللمحة التاريخية حول المنزل لتعرف المخابئ السرية الموجودة فيه، لقد أدركت أن سنجد السيد دوغلاس تحت هذا السقف."

"ومنذ متى وأنت تعرف هذه الخدعة علينا سيد هولمز؟" سأل ماكدونالد بغضب. "كم سمحت لنفسك أن تسمح بتضييع وقتنا بالبحث الغير مجدي؟"

"ولا للحظة واحدة يا عزيزي ماك. ليلة البارحة فقط توصلت لاستنتاجي، رغم أني لم أحصل على دليل إلا هذه الأمسية. طلبت منك ومن زميلك أخذ اليوم كراحة. فماذا كان باستطاعتي أن أفعل غير ذلك؟ حين وجدت صرة الثياب التي كانت تحت المياه أدركت أن الجثة لم تكن للسيد جون دوغلاس بل للرجل الذي أتى من تونبريدج، ولا أي استنتاج آخر كان منطقياً وممكناً. وبهذا كان علي معرفة مكان تواجد السيد جون دوغلاس نفسه، والميزان للاحتمالات كان، بمساعدة زوجته وصديقه. اختبأ السيد دوغلاس في مكان سري من داخل هذا المنزل إلى أن يحين الوقت لتدبير هروب هادئ له."

"لا بأس، لقد أعطيت تصوراً صحيحاً حول ما حدث" رد السيد دوغلاس: "اعتقدت أنه كان باستطاعتي الهرب من قبضتكم بعيداً، لأنني لم أكن أعرف حقيقة موقفي منه، وكذلك رأيت بهذا فرصتي للخلاص من الكلاب الذين كانوا يقتفون أثري منذ سنين. وأؤكد لكم أنه من البداية وحتى النهاية لم أرتكب أي عمل مشين أخجل منه ولكنكم ستحكمون على ذلك بأنفسكم حين تسمعون قصتي التي سأتلوها عليكم بكل صدق وصراحة.

لن أبدأ من البداية لأن البداية موجودة عندكم بين الأوراق. الملخص هو أن بعض الرجال عندهم كل الأسباب ليكرهوني وليتمنوا لي الموت ويسعون لقتلي. طالما أنهم على قيد الحياة وأنا على قيد الحياة فلن يكون هناك أي أمان لي في هذا العالم.

طاردوني من شيكاغو إلى كاليفورنيا ثم طاردوني خارج أمريكا، لكن حين تزوجت واستقريت بهذه المنطقة ظننت أن سنوات عمري هذه ستمر بسلام. لم أشرح لزوجتي الأمر. ولماذا أورطها بهذا؟ لن تحظى بلحظة سلام وراحة إن أنا فعلت بل ستتخيل دوماً المتاعب والمشاكل. وبهذا لم أطلعها على أي شيء محافظة عليها من القلق. لكنها الآن تعرف كل شيء. شد على يدها بحب: وربما هذا ما كان يجب أن يحدث من البداية.

حسناً، حضرة السادة. في اليوم الذي سبق الحادثة كنت في سوق تونبردج حين لاحظت وجود رجل على دراجة. لمحته للحظة فقط لكنني أدركت فوراً هويته. كان أسوأ عدو لي من بينهم جميعاً، الرجل

الذي كان يلاحقني كالثعلب الجائع منذ سنوات. أدركت أن مذبحة قريبة كانت على وشك الحدوث فعدت إلى المنزل وسنتغيب لثلاث.

ظللت متنبهاً طوال اليوم التالي ولم أخرج حتى إلى الحديقة. بعد رفع الجسر – كان عقلي يرتاح أكثر كلما ارتفع ذلك الجسر في المساء – ظننت أن الخطر قد زال فهدأت للنوم. لكن حين قمت بجولتي الليلية المعتادة ودخلت غرفة المكتب ولم أرتدِ ملابس نومي شعرت بالخطر. أفترض أن الرجل الذي يتعرض لكثير من الأخطار في حياته يشم رائحة الخطر حيثما يكون. فتنبهت ورأيت حذاء للرجل المختفي خلف الستارة.

لم يكن معي إلا الشمعة لكن الضوء كان يتسلل من الممر منيراً المكان. وضعت الشمعة على المكتب وأسرعت بإمساك المطرقة التي كانت على الأرض. بنفس اللحظة هجم علي. رأيت بريق السكين التي كانت بيده فأسرعت بضربه بالمطرقة. أصبته بمكان ما لأن السكين سقطت من يده على الأرض. استدار حول المكتب بسرعة ودقة وتناول السلاح القاتل من جيب معطفه. سمعته يشد البندقية لكني أمسكت بها قبل أن يوجهها نحوي. أمسكتها من الماسورة وتصارعنا للسيطرة عليها لدقيقة أو اثنتين. الموت كان بالمرصاد للرجل الذي سيفلت قبضته. لم يفلت قبضته لكن البندقية اتجهت نحو الأعلى لفترة طويلة. لربما أنا من شددت الزناد أو لربما أنا وهو سوياً. لكن الطلقتين أصابت وجهه ووقفت أنا مكاني بذهول مشاهداً ما تبقى من وجه تيد بالدون ورأسه. ميزته حين رأيته في السوق وبنفس اللحظة التي هجم بي

عني، لكن والدته نفسها ما كانت تميزه بالحالة التي أصبح عليها لاحقًا. أنا معتاد على المناظر القاسية، لكنني أوشكت على الإغماء لرؤيتي لما أصابه.

كنت أتكئ على طرف المكتب حين وصل باركر إلى الغرفة. سمعت صوت زوجتي التي وصلت بدورها فأسرعت نحو الباب ومنعتها من الدخول حتى لا تشاهد المنظر المروع. وانتظرنا وصول بقية الخدم للحظات لكن أحدًا لم يحضر.

بتلك اللحظة خطرت الفكرة ببالي. تعلقت بهذه الفكرة الماهرة أكمام الرجل كانت قد رفعت ورأيت علامة الوشم على ذراعه. انظروا إلى هنا."

رفع دوغلاس كمه ورأينا المثلث داخل الدائرة نفسه الموجود على الجثة. "رؤيتي لهذه العلامة هي التي جعلت الفكرة تخطر ببالي" تابع دوغلاس: "بدا لي كل شيء واضحًا وظاهرًا. طوله وجسمه كانا مشابهين لي تمامًا وكذلك لون شعره. أما فيما يتعلق بوجهه فإن أحدًا لن يميزه. المسكين! أحضرت له ملابسي وبلحظات كان يرتدي مئزري ولباسي. جمعت كل أغراضه وثيابه برزمة ووضعت الثقل داخل الصرة حتى تغرق في قعر المياه. البطاقة التي قصد أن يتركها بجانب جثتي تركتها بجانب جثته. خلعت خواتمي وألبسته إياها ولكن خاتم الزواج لم يخرج من إصبعي.

فهو بنفس مكانه منذ تزوجت ولو حاولت خلعه فلن أستطع ولهذا فقد تركت هنا التفصيل الصغير

ومن ناحية أخرى فقد وضعت قطعة ضمادة صغيرة على فكه كخدش. لقد غاب هذا عنك سيد هولمز، لو أنك خلعت الضمادة لما وجدت تحتها أي جرح.

حسناً، هذا ما حدث. إذ استطعت الاختباء لمدة ثم الهروب بهدوء إلى مكان خاص حيث تلحق بي زوجتي لاحقاً فهذه ستكون فرصتنا للعيش بسلام واطمئنان أخيراً. هؤلاء الشياطين ما كانوا ليتركوني بسلام ما دمت على سطح هذه الأرض، لكن إذا عرفوا أن الملعون قد نجح بمهمته فهذه ستكون نهاية مشاكلي. لم أرغب بشرح الأمر لباركر وزوجتي لكنهما فهما ما فيه الكفاية ليساعداني. كنت أعرف هذا تحت السرير وميس كان يعرفه بدوره لكنه لم يتدخل بهذا الموضوع. عتّمت على ذلك وتركت باركر ليقوم بالباقي.

أظن أنكم تعرفون ما الذي فعله. فتح النافذة ووضع علامة الدم ليعطي إيحاءً بهروب المجرم، مع أن الجسر كان مرفوعاً فهذه هي الطريقة الممكنة الوحيدة للهرب. ثم بعد تدبير كل شيء رن الجرس وحدث ما تعرفونه – ولهما حضرة السادة، تستطيعون القيام بما ترغبون به، لكني قد أطلعتكم على كل الحقيقة، ولذا ساعدوني، يا إلهي! ما أظنه منكم الآن هو كيف بإمكاني تجنب القانون البريطاني؟"

ساد صمت قطعه شارلوك هولمز.

"القانون البريطاني هو مجرد قانون كباقي القوانين، لن تصاب بالأسوأ من حصته، لكني سأسألك كيف عرف هذا الرجل أنك تسكن هنا، أو كيف دخل إلى منزلك وكيف عرف أين يختبئ حتى ينال منك؟"

"لا أعرف شيئاً عن هذا."

شحب وجه هولمز بشدة وتصلب. "القانون البريطاني ليس أسوأ ما ستتعرض له" قال صديقي محذراً: "ستقابل الكثير من مخاطر غير القانون البريطاني، أو حتى أسوأ من أعدائك من أمريكا. أرى المشاكل أمامك، سيد دوغلاس. خذ نصيحتي وكن حريصاً."

والآن حضرة القراء الأعزاء سأسرد عليكم تفاصيل قصة حدثت قبل عشرين سنة في بلاد بعيدة لكنها أغرب وأكثر القصص رعباً سبق لكم أن سمعتموها. بعدها سأعود وإياكم إلى تلك الغرفة في شارع بيكر حيث سنحصل كالعادة على النهاية لهذه القصة كغيرها من القضايا السابقة.

الجزء الثاني

لسكورز

الفصل الأول

الرجل

كان الربع من شباط عام 1875. كان الشتاء قارساً والثلوج قد كست قمم جبال غيمورتن. القطار الذي يصل بين مناجم ومساكن المعدنين كان يشق طريقه عبر الأراضي البيضاء نحو فيرميت، البلدة الرئيسية التي تقع وسط وادي فيرميت. كان القطار ينقل بحمولته الكثيرة الفحم والحديد، أكثر هذه المنطقة، والتي جعل عدد سكان المدينة يزداد ويتكاثر بوقت قصير.

الحقول والبراري الشاسعة كانت تمتد على مد النظر في هذا الوادي الذي كان القطار يقطعه.

في عربة المسافرين كانت الأضواء مضاءة. كانت العربة تجمع حوالي الأربعين مسافراً. مجموعة من عمال المناجم عائدين من أعمالهم اليومية بوجوههم المسودة الصلبة. كانوا يتحدثون بصوت منخفض ويدخنون التبغ. أمامهم كان يجلس رجلين بثياب رسمية تدل أنهم شرطيين. وكان هناك بعض نساء العاملات وو حده أو اثنين من صاحبات المحلات وكان هناك رجل شاب يجلس في الزاوية. انتبهوا جيداً لهذا الشاب لأنه محور قصتنا.

إنه شاب وسيم بطلعة متوسط القامة بعمر العشرينات. عيونه الرمادية المرحة الواسعة كانت تتنقل على الركاب حوله بمرح من خلف نظارته الصغيرة. مظهره كان يدل أنه ذو مستوى اجتماعي لائق وأنه

متشوق لمصادقة كل الرجال. وكان بذكاء متوقد وبابتسامة سريعة دائمة. لكن المحدق به أكثر سيلاحظ تصلب فكه وثبات جبينه مما يدل على طبيعته القوية الصارمة الواثقة. وأن هذا الشاب الوسيم الإيرلندي سيترك آثاراً سيئة أو جيدة على المجتمع الذي يوشك على الانخراط به.

بعد تبادله لبعض الكلمات مع عامل المنجم الذي كان يجلس بجانبه تابع النظر عبر النافذة نحو الأراضي الشاسعة في الخارج. كانت نيران المراجل تبدو من خلف التلال من البعيد. أكوام من الحديد والتراب كانت متناثرة قرب التلال. أودية ضيقة مزروعة بالمناجم الكثيرة لم تكن مكاناً للهو والتسلية. في كل مكان كان هناك آثاراً لمصارعة الحياة، العمل المضني الذي يقوم به العمال الأشداء.

المسافر الشاب حدق بما حوله بتعبير مستمتع وغير معجب بنفس الوقت مما أظهر أن المشهد كان جديداً عليه. بين الحين والآخر كان يخرج رسالة من جيبه ويدون على هامشها بعض الملاحظات. كذلك مرة أو مرتين تناول من جيبه مسدساً يستغرب وجوده مع شاب صغير السن مثله. لكنه أعاد وضعه بسرعة إلى جيبه. لكن ليس قبل أن ينتبه له العامل الجالس بجانبه.

"واو يا رفيق" قال الرجل: "تبدو مستعداً وجاهزاً."

ابتسم الشاب بارتباك.

"أجل" قال: "نحن نحتاجه أحياناً في المكان الذي أتيت منه."

"وأين هو ذلك المكان؟"

"كنت مؤخراً في شيكاغو."

"أنت غريب بهذه المنطقة؟"

"أجل."

"قد تجد أنك ستحتاجه هنا" قال العامل.

"أهذا صحيح؟" بدا الاهتمام على الشاب.

"ألم تسمع شيئاً من بعض الأحداث التي تخص هنا؟"

"لا شيء غير عادي."

"ظننت بلدة ممتلئة بما هو غير عادي. ستسمع بالكثير قريباً. ما الذي جعلك تأتي إلى هنا؟"

"سمعت بأن عملاً موجوداً برجل مصمم."

"هل أنت أحد أعضاء اتحاد العمال؟"

"بالطبع."

"إذاً ستحصل على العمل الذي تريد، على ما أظن. هل عندك أي أصدقاء؟"

"ليس بعد. لكن عندي الوسيلة لذلك."

"وكيف؟"

"أنا أحد أعضاء الأحرار القدامى. لا تخلو أية بلدة من وجود هذه الجمعية بها. وهكذا فأعضاء هذه الجمعية سيكونون أصدقائي."

كلمات الشاب جعلت العامل ينظر حوله بشك وارتياب. العمال كانوا لا يزالون يتحدثون بهمس. رجلا الشرطة كانا غافلين. فاقترب العامل أكثر من الشاب وأمسك بيده.

"ضعها هنا" قال.

تصافحا سوياً.

"أرى أنك تقول الحقيقة. لكن من الأفضل أن نتأكد من ذلك."

رفع العامل يده نحو جفنه الأيمن فرفع الشاب يده اليسرى نحو جفنه الأيسر.

"الليالي سوداء غير سارة" قال العامل.

"أجل، لسفر الغرباء" رد الشاب.

"هذا جيد كفاية. أنا الأخ سكانلان، 341، وادي فيرميسا. أنا مسرور لرؤيتك بهذه الأنحاء."

"شكراً لك. أنا الأخ جون مكموردو، 29، شيكاغو. تابع الرئيس جـ. هـ. سكوت (J. H. Scott) لكني مسرور جداً بلقائي بأخ بهذه السرعة."

"لا بأس هناك الكثير منا بهذه الأرجاء. لن تجد النظام مستتباً بأي مكان آخر في الولايات كلها أكثر من وادي فيرميسا. لكن نستطيع الاستفادة من شاب مثلك. لا أستطيع أن أفهم كيف لشاب في الاتحاد أن لا يجد عملاً مناسباً في شيكاغو."

"كان عندي الكثير من العمل لأقوم به هناك" قال جون.

"إذاً لماذا تركت شيكاغو؟"

أشار الشاب نحو الشرطيين وابتسم.

"أظن أن هؤلاء سيسرون جداً بسماع السبب" قال.

ابتسم سكانلان بدوره بتعاطف.

"أنت بمشكلة؟" سأل الرجل بهمس.

"عويصة."

"عمل يتعلق بالسجن؟"

"وما يتعلق به."

"أليس قضية قتل؟"

"الوقت باكر للتحدث حول هذا الأمر" قال ماكوردو بنبرة الرجل الذي شعر أنه قد صرّح بأكثر مما كان عليه أن يصرّح به.

"كان عندي سبباً وجيهاً لترك شيكاغو. وليكن هذا كافياً لك. من تعتبر نفسك حتى تسأل كل هذه الأسئلة؟"

التمعت عيناه الرماديتان بخطر غضب مفاجئ.

"لا بأس يا رفيق. لم أقصد أية إهانة. لن يظن الشباب بك أي سوء مهما كان ما فعلته سابقاً. إلى أين تتجه الآن؟"

"إلى فيرميسا."

"إنها المحطة الثالثة. أين ستقيم؟"

تناول ماكوردو ظرفاً من جيبه وقربه من الضوء.

"هذا هو العنوان – جيكوب شافتر، شارع شيريدان. إنه مسكن خاص أوصى به أحد الأشخاص في شيكاغو."

"حسن، لا أعرف المكان، لكني لا أعرف فيرميسا كثيراً. أنا أسكن في هوبسون محطتنا التالية. لكن قبل أن نفترق دعني أنصحك نصيحة ذهبية. إذا واجهتك أية متاعب في فيرميسا، اذهب مباشرة إلى مبنى الاتحاد وقابل الرئيس ميجينتي. إنه رئيس الجمعية في فيرميسا ولا شيء يحدث في هذا المكان إذا لم يرغب به جاك ميجينتي الأسود. إلى

انتبه يا رفيق. لربما سلبتني بالحجة يوماً ما. لكن تذكر كلمتي إذا واجهتك المشاكل فاذهب إلى برنس ميعيسي."

نزل سكابلان وعاد ماكوردو إلى أفكاره. الظلام كان قد حل تماماً، وظهرت أكثر نيران المرحل وكذلك صوت هدير النار داخلهم.

"أظن أن جحيم ستبدو مثل هذا المنظر" قال أحدهم.

ماكوردو استدار وشاهد أحد رجال الشرطة يحدق عبر النافذة.

"حقاً" رد الشرطي الثاني: "أعتقد أن جحيم ستبدو هكذا. إذ كان هناك شياطين أكثر في هذه المنطقة غير ممن نعرفهم فأظن أن المكان سيصبح ممتلأ تماماً بهم. أظن أنك جديد بهذه الأنحاء أيها الشاب؟"

"حسناً، وماذا إذا كنت كذلك؟" أجاب ماكوردو بصوت واثق.

"مجرد السؤال يا سيدي، حتى أنصحك بالحرص بانتقائك لأصدقائك. ما كنت لأبدأ بسكابلان وعصابته لو كنت مكانك."

"وماذا يهمك أنت بشأن اختياري لأصدقائي؟" هدر ماكوردو بصوت جعل رؤوس كل من داخل الحافلة تتجه إليه: "هل طلبت منك أنا النصيحة. أم أنك تظن أنني بحاجة للنصيحة؟ تكلم حين أطلب منك ذلك، وذلك لن يكون قريباً."

ابتسم بخبث للشرطي كالذئب.

الشرطيان الطيبا القلب اندهشا لحدة رد الشاب على محاولتهم إسداء النصيحة.

"لا إهانة يا غريب" قال أحدهم، "كان هذا مجرد تحذير لصالحك كونك غريب وجديد هنا."

"أنا غريب عن المكان لكني لست غريباً عنكم وعن أمثالكم" رد ماكوردو بغضب: "أعتقد أنكم من نفس الطينة أينما كنتم تعطون نصائحكم لمن لا يطلبها منكم."

"ربما سنراك مجدداً قبل مضي وقت طويل" قال أحد الشرطيين بابتسامة: "أنت فعلاً شخص مشاكس، كما أرى."

"كنت أفكر بذلك" رد الآخر: "أعتقد أننا سنلتقي مجدداً."

"أنا لا أخاف منكم ولا تعتقدوا ذلك أبداً" صاح ماكوردو: "اسمي هو جاك ماكوردو - أترون؟ إذا أردتماني فستجدانني في فيرميسا شارع شيريدان عند جيكوب شافتر. إذاً أنا لا أختبئ منكم، أترون؟ ليلاً أو نهاراً سأنظر إلى وجهكم بكل جرأة، لا تخطئا بذلك."

كان هناك تمتمات بالإعجاب والتعاطف بين العمال حول الشاب الجريء وهز الشرطيين أكتافهم وتابعا حديثهما العادي. وصل القطار إلى محطة فيرميسا وحمل حقيبته الصغيرة وكان على وشك مغادرة القطار، حين اقترب منه أحد عمال المناجم.

"هيه يا شاب! لك فعلاً طريقة جريئة بالتخاطب مع رجال الشرطة" قال العامل: "دعني أحمل هذا الكيس عنك أنا سأمر بشافتر بطريقي نحو كوخي. سأدلك على الطريق."

"تصبح على خير" قالها له العديد من العمال بحرارة وهم يغادرون القطار بدورهم، وقبل أن يضع حتى ماكوردو قدمه على أرض الوادي أصبح شخصاً معروفاً في فيرميسا.

البلدة كانت كئيبة وداكنة. شوارعها ضيقة والرصيف متعرج وضيق بدوره. والمدارس كانت بشعة المنظر وفقيرة.

"هذا هو منزل الاتحاد" قال المرشد مشيراً إلى أحد الأبنية: "جاء ميغينتي هو الرئيس هنا."

"أي نوع من الرجال هو؟" سأل ماكوردو.

"ماذا! ألم تسمع بالرئيس؟"

"كيف بإمكاني السماع به وأنا غريب في المنطقة؟"

"لا بأس. لقد اعتقدت أن اسمه معروف في كل أرجاء المنطقة. فقد ذكر اسمه في الصحف دوماً."

"لأي سبب؟"

"حسناً،" خفض العامل صوته: "بسبب المسائل."

"أية مسائل؟"

"يا إلهي! يا سيد، أنت غريب الأطوار فعلاً وواقع بمصيبة. اسمح لي أن لا أقصد الإهانة. هناك مسائل من نوع واحد ستسمعه في هذه الأنحاء، وتلك هي مسائل السكورز."

"أظن أني قد قرأت عن السكورز في شيكاغو. عصابة من المجرمين، أليس كذلك؟"

"اصمت، تباً لحياتك!" صاح العامل وحدق بذهول مشدوه: "يا رجل، لن تعيش مطولاً في هذه الأنحاء إن تحدثت بهذه الطريقة. العديد من الرجال قد خسروا حياتهم بسبب أتفه من هذا."

"حسناً، لا أعرف أي شيء عنهم. هذا فقط ما قرأته."

"وأنا لا أقول أنك لم تقرأ إلا الصحيح" قال الرجل بعصبية وهو ينظر حوله: "إذا كان القتل جريمة، فالرب يعرف أن هناك العديد من الجرائم المرتكبة هنا من قبلهم. لكن لا تتحرَّ وتربط بين اسم جاك ميعيتي وبين هذه الجرائم. لأن كل همسة تعود إليه، إنه غريب، وهو لا يريد أي شيء يحدث من بين يديه. وإن ذاك هو المنزل الذي تفتش عنه – ذاك البعيد عن الطريق. ستجد جاكوب شافر المسؤول عن المكان كأحسن وأشرف رجل في البلدة كلها."

"شكراً جزيلاً لك" قال ماكوردو وودّع العجوز ثم حمل كيسه وانطلق نحو مدخل المنزل. طرق الباب وفتحه له شخص لم يطابق توقعاته.

من فتح الباب كانت امرأة شابة جميلة جداً. كانت من الطراز الأمدي، شقراء بشعر أملس، بعيون سوداء واسعة. نظرت إلى الغريب بتفحص واستغراب مرتبك لون وجهها الجميل بالأحمر الخجل. وجد ماكوردو أنه لم يسبق له وشاهد فتاة مثل هذا الجمال. زهرة بمسحية رائعة مثل هذه تبدو غريبة بمكان كئيب بين الأحراج كهذا. ظل يحدق بها بدهشة وإعجاب، وكانت هي من قطع الصمت.

"ظننت أنك الطارق والدي" قالت بلكنة ألمانية محببة: "هل أتيت لتراه؟ إنه في البلدة. أتوقع عودته بأية لحظة."

ظل ماكوردو يحدق بها بإعجاب وصل إلى أن أحست بعدم الارتباك أمام هذا الغريب المتسلط.

"لا، يا آنسة" قال أخيراً: "لست مستعجلاً برؤيته. لكن أحدهم نصحني بالسكن في منزلكم هذا. حسبت أن ذلك سيناسبني لكني الآن متأكد من ذلك."

"أنت سريع باتخاذ قراراتك" قلت بابتسامة.

"أي شخص باستطاعته الرجل الصغير سيدرك ذلك" أجابها.

ضحكت لإطرائه.

"تفضل بالدخول يا سيد" قلت: "أنا الآنسة بيتي شافتر ابنة السيد شافتر. والدتي متوفاة وأنا أدير المكان. تستطيع الجلوس قرب المدفأة في غرفة الجلوس إلى أن يصل والدي. آه، ها هو، ستتمكن من تسوية الأمور معه على الفور."

دخل المكان رجل كبير في السن. بكلمات قليلة شرح له ماكوردو مطلبه. وأخبره أن مورفي نصحه بالقدوم إلى هذا المسكن. ووافق الشاب على طلبات العجوز، وكذلك على المبلغ الذي طلبه دون أي مناقشة. وهكذا باستئجاره لغرفة عند آل شافتر كان الشاب ماكوردو يقوم بالخطوة الأولى في طريق طويل جداً بدأ بسلسلة من الأحداث المأساوية التي ستنتهي في بلاد أخرى.

الفصل الثاني

تريس

ماكوردو كان رجلاً يثير الانطباع حتى عند كل من يلتقيه من المرة الأولى. حيثما حل كان السكان يلتفون حوله وبعد أسبوع أصبح من أهم الشخصيات المقيمة عند شافر. كان هناك حوالي عشرة نزلاء آخرين لكنهم كانوا تجاراً شرفاء أو موظفين عاديين ومن نوع يختلف تماماً عن نوع الشاب الأيرلندي. كل أمسية حين يجتمعون كانت ضحكاته هي الأشد مرحاً، حديثه الأشد سحراً وغناؤه الأكثر جمالاً. كان مخلوقاً اجتماعياً بارزاً يظهر بوضوح بين المجموعة ويجذب كل الانتباه نحوه كما يجذب المغناطيس الحديد. لكنه أيضاً كان يظهر أحياناً، كما فعل في حافلة القطار، غضباً مفاجئاً وحدة طبع كانت تجعل الآخرين يحترمونه أو يخافونه. بالنسبة للقانون أيضاً، كان الشاب يظهر احتقاره وازدراءه اتجاهه مما كان يُفرح بعضهم ويُحذر البعض الآخر من هذا تعريضه.

منذ البداية أوضح، بتجربته الظاهرة، أن ابنة صاحب النزل قد كسبت قلبه منذ اللحظة الأولى حين وقع بنظره عليها. لم يكن من المترددين. في اليوم الثاني مباشرة أخبرها أنه يحبها ومنذ ذلك الحين أخذ يردد همه نفسه دون الاهتمام مطلقاً بما قد تقوله وتصده به.

"هناك أحد آخر؟" كان يبكي: "لا بأس، حظ الأسوأ للشخص الآخر هذا! سيذهب ويفتش عن فتاة غيرك لنفسه! هل أخسر فرصة حياتي وكل حب قلبي من أجل شخص آخر؟ تستطيعين أن تستمري

بقول "لا" ريثي أصبحتُ اليوم الذي تقولين فيه "نعم" وأن شطب كلمة لأسطر ذلك اليوم."

كان محدثاً لبقاً وساحراً وكانت هناك هالة من الغموض والخبرة تحيط به مما يجعله جذاباً ومثيراً لأي امرأة. كان يتحدث عن البلاد التي زارها عن طبيعتها عن جبالها عن مر به هناك ومن عرفه ثم يصل إلى الرومانسية ليقول أنه صادف هنا بهذا الوادي الخصب أمل حياته وحبه الأكبر، وكانت إيمي تستمع له وعيونها السوداء تبرق بالتعاطف والحنو - هاتين العاطفتين اللتين ستتحولان بسرعة وبطبيعيه إلى حب.

استلم ماكوردو عملاً مؤقتاً كبائع في مكتبة لأنه كان مثقفاً كذلك. كان هذا العمل يبقيه مشغولاً معظم النهار وكان يعود مساءاً إلى المنزل وبهذا فقد نسي كل شيء حول لويس الذي حدثه عنه رفيقه في القصر. لكن أحد الأيام زاره سكاملان بنفسه وبعد فترة من جلوسه وتناوله للشراب بدأ الموضوع.

"سيد ماكوردو" قال سكاملان: "لقد تذكرت عنوانك ولهذا تحركت وأتيت لزيارتك. أنا مندهش لأنك لم تتصل بلويس بعد. لماذا لم تذهب للمريض ميفينتي بعد؟"

"حسناً، لقد وجدت عملاً. أنا مشغول."

"يجب أن تجد الوقت لتزوره قبل أي شيء آخر. يا إلهي، يا رجل، لقد كنت محظوظاً بعدم توجهك إلى منزل الأخدود وتسجيل اسمك في اليوم الذي لوصولك إلى هنا مباشرة إذا تجاهلته. حسن لا يجب أن تفعل ذلك - هذا كل شيء.

أظهر ماكموردو دهشته.

"أنا عضو في الجمعية منذ سنتين تقريباً، سكانلان، ولم أسمع قط بضرورة التقيد بهكذا تصرف."

"ربما ليس في شيكاغو."

"حسناً، إنها نفس الجمعية هنا."

"حقاً؟"

نظر سكانلان إليه مطولاً وبدقة. كان هناك شيئاً ما داخل عينيه.

"أليس هذا صحيحاً؟"

"ستخبرني بنفسك بذلك بعد شهر من الآن. سمعت أنك أجريت بعض الحديث مع رجلي الشرطة بعد مغادرتي للقطار."

"كيف عرفت؟"

"آه إن الأمور تنتشر بسرعة - كل شيء ينتشر بهذه المقاطعة."

"حسناً، أجل، لقد أخبرت الكلاب ما هو رأيي بهم."

"يا إلهي، ستكون رجلاً مقرباً جداً إلى قلب ميغينتي!"

"ماذا – هل يكره هو بدوره الشرطة أيضاً؟"

انفجر سكانلان بالضحك.

"اذهب وقابله يا بني" قال سكانلان قبل أن يغادر: "الأمر لا يتعلق بالشرطة بل بك. سيكره ذلك إذا لم تفعل ولكن، خذ نصيحة من صديق واذهب لتقابله حالاً!"

صدف أنه بنفس الأمسية واجه ماكموردو حادثة ضغطت عليه أكثر لذهب إلى تلك المقابلة. ربما اهتمامه الظاهر بالآنسة أو أي سبب

آخر دفع بصاحب النزل لاستدعاء الشاب إلى مكتبه الخاص حيث بدأ الموضوع فوراً.

"يبدو لي يا سيدي" قال: "أنك تضع عينك على ابنتي. هل هذا صحيح أم أنني على خطأ؟"

"أجل. هذا صحيح" أجاب الشاب.

"حسناً. أريد أن أحذرك الآن فوراً أن تصرف النظر عن هذا الموضوع. أحدهم قد تكلم معي حولها."

"لقد أخبرتني بذلك."

"حسناً. تأكد أن ما قالته لك صحيح. لكن هل أخبرتك عن هوية هذا الشخص؟"

"لا. لقد سألتها عن ذلك لكنها لم تطلعني على الأمر."

"أستطيع القول أنها لم تفعل لأنها لا ترغب بإخافتك."

"إخافتي!" اشتعل غضب ماكوردو فوراً.

"اهدأ. أجل، يا صديقي! لا داعي لتخجل من أن تخاف منه. الشخص هو تيدي بالدوين."

"ومن هو هذا الأحمق السيء؟"

"إنه زعيم في السكورز"

"السكورز! لقد سمعت عنهم من قبل. هنا يقول السكورز وهناك يتحدث عن السكورز وكل هذا بهمس! لم تخافون جميعاً؟ من هم السكورز هؤلاء؟"

أخفض صاحب النزل صوته فوراً كما يفعل جميع من ينطق هذا الاسم في هذه البلدة.

"السكورر" قال العجوز: "هم الرجال الأحرار القدامى."

اندهل الشاب.

"ولكن أنا نفسي عضواً بهذه الجمعية."

"أنت! ما كنت لأستضيفك بمنزلي لو عرفت ذلك – حتى ولو دفعت لي مئة دولار في الأسبوع."

"ما السيء بهذه الجمعية؟ إنها تعمل للخير والصداقة. القوانين تقول ذلك."

"ربما في أماكن أخرى. ولكن ليس هنا."

"وكيف هي الحال هنا؟"

"إنها جمعية إجرامية. هذه هي حالها."

انفجر ماكموردو بالضحك بعدم التصديق.

"كيف تبرهن ذلك؟" سأل.

"أبرهن ذلك! أليس هناك خمسون جريمة لبرهنة ذلك؟ مثلاً جون ملمن وفان شورتز، وعائلة نيكولاس، السيد هيم العجوز، وبيلي جيمس الصغير، والآخرون؟ أبرهن ذلك! هل هناك رجل أو امرأة واحدة بكل هذا الوادي لا يعرف هذا؟"

"اسمع" قال ماكموردو بحرارة، "أريدك أن تسترجع كل ما قلته أو أن تثبته. عليك أن تفعل ذلك قبل أن أغادر هذه الغرفة. ضع نفسك مكاني. ها أنا هنا، غريب عن البلدة. أنتمي لجمعية أعرف أنها جمعية

حربية وأعمال جماعية. والآن، في حين أنني عضو بهذه الجمعية هنا، أنت تقول لي أنها نفس الجمعية الإجرامية المسماة "سكورزا" أعتقد أنك تدين لي باعتذار أو بشرح سيد شيفتر."

"أستطيع فقط أن أخبرك أن كل المدينة يعرف ذلك يا سيدي. رؤساء الجمعية الأولى هم نفسهم رؤساء الجمعية الثانية. إذا أهنت الواحدة فستنتقم منك الثانية، لقد برهنوا ذلك مرارًا."

"هذه مجرد أقاويل. أنا أريد براهين!" قال ماكوردو.

"إذا طالت إقامتك هنا فستحصل على براهينك. لكني نسيت أنك نفسك واحد منهم، ستصبح قريبًا سيئًا مثلهم تمامًا. لكن سيكون عليك إيجاد مسكن آخر لك يا سيدي. لا يمكنك أن تبقى هنا. ألا يكفيني أن واحدًا منكم يأتي ليجالس ابنتي إيتي وأنا لا أجرؤ على منعه، والآن تريد أن أبقيك أنت أيضًا هنا؟ أجل، لن تنام هنا ليلة أخرى بعد الآن."

وهكذا، فقد تعرض الشاب لحكم بالنفي ليس من غرفته فقط بل بعيدًا عن حبيبته أيضًا. ولهذا فقد اتجه إلى غرفة الجلوس بنفس ذلك اليوم حيث كانت إيتي وحدها هناك، فباح لها بهمومه ومشاكله.

"إن والدك يوشك على طردي" قال: "ما كنت لأكترث لو أن الأمر يتعلق بغرفتي فقط، لكن إيتي، وأقسم أنني أقول الصدق أنه ورغم تعرفي إليك منذ أسبوع فقط فقد أصبحت نفس حياتي ولا أستطيع العيش بدونك."

"أوه، سكت سيد ماكوردو" ردت الفتاة: "لا تتكلم هكذا! لقد
قلت لك، ألم تقل أنك قد وصلت متأخراً؟ هناك شخص آخر لو لم أكن
قد وعدته بالزواج فوراً فعلى الأقل لن أتمكن من أن أعد بدلك أي
رجل آخر."

"افترضي أنني كنت الأول، إيثي. هل كنت سأحظى بفرصة؟"

دفنت الفتاة وجهها بيديها.

"أتمنى من السماء لو أنك كنت الأول" قالت وهي تبكي بحرقة.

ركع ماكوردو على ركبتيه فوراً أمامها

"بحق الرب، إيثي، لنسوّ الأمر هنا" صاح. "هل ستهدمين حياتك
وحياتي من أجل هذا الوعد؟ اتبعي قلبك يا غاليتي! إنه المرشد الأصح
من أي وعد نطقت به قبل أن تعي تماماً ما كنت تقولين."

كان قد أمسك يد إيثي البيضاء الناعمة بين يديه البنيتين الصلبتين.

"قولي أنك ستكونين لي وسنواجه العالم سوياً."

"ليس هنا!"

"بلى هنا."

"لا، لا، جاك!" ذراعيه كانت حولها الآن: "من المستحيل أن
يكون ذلك هنا. أتستطيع أن تأخذني بعيداً عن هنا؟"

ظهر الصراع على وجهه للحظة لكن وجهه عاد وتصلب.

"لا، هنا" قال: "سأحميك وأدافع عنك ضد العالم إيثي، هنا حيث
نحن."

"ولم لا نرحل من هنا سوياً؟"

"لا، بني. لا أستطيع مغادرة هذا المكان."

"لكن لماذا؟"

"لن أتمكن من رفع رأسي مطلقاً إذا شعرت أني قد هربت من مكان ما، وأيضاً، ما الذي يدفعك للخوف؟ ألسنا شعب حر في بلاد حرة؟ إذا كنت تحبني وأنا أحبك فمن سيجرؤ على الوقوف في طريقنا؟"

"أنت لا تعرف جيداً. لقد مضى عليك وقت قصير هنا. أنت لا تعرف بالقانون هنا. لا تعرف ميغيتي واسكورزا وأتباعه."

"لا. لا أعرفهم، ولا أخشاهم ولا أؤمن بهم" قال ماكوردو: "لقد عشت بين الرجال القساة في عمري، وبدلاً من أن أخافهم كان الأمر ينتهي دوماً بأن يخافوا هم مني - دوماً، بني. إذا كان هؤلاء الرجال، كما يقول والدك، قد ارتكبوا الجريمة تلو الأخرى في هذا الوادي، فكيف لم يمثل أحدهم أمام العدالة؟ أجبني عن ذلك بني!"

"لأن لا شاهد يجرؤ على الشهادة ضدهم. لن يعيش شهر واحد إذا فعل. ولأنه دوماً لديهم رجالهم الذين يقسمون أن الشخص المتهم كان معهم أثناء حدوث الجريمة. لكن بالتأكيد جاك أنت قد قرأت كل هذا! علمت أن كل صحف البلاد كانت تكتب عن ذلك."

"حسناً، لقد قرأت بعضاً من هذا، هذا صحيح. لكني ظننت مجرد قصة. لربما لهؤلاء الرجال سبب خلف ما يفعلوه. لربما الآخرون يظلمونهم ولا يعرفوا الحقيقة."

"أوه، أرجوك، لا تدعني أسمعك تتكلم بهذه الطريقة. هكذا يتكلم الآخر – بالدوين."

"بالدوين – هو يتكلم بهذه الطريقة؟"

"أجل ولهذا أنا أكرهه وأبغضه. آه، جاك، الآن أستطيع على الحقيقة أن أبغضه من أعماق قلبي. لكني أخافه أيضاً. أخاف منه على نفسي وعلى والدي أكثر من نفسي. أعرف أنهم سيسببون له التعاسة والأذى إذا تجرأت وقلت ما أشعر به. لهذا لقد أعطيته أنصاف الوعود. لكن إذا استطعت الهروب معي جاك، فنستطيع أن نأخذ والدي معنا ونعيش في مكان بعيد عن سلطة هؤلاء الأشرار المجرمين."

فجأة ظهر الصراع على ملامح ماكموردو وفجأة تصلب وجهه كالجرانيت.

"لن يلحق بك أي أذى يا فتاتي - ولا بوالدك أيضاً. هم يتعلق بالرجال الأشرار. فأتوقع أنك ستجدينني شريراً مثلهم قبل مرور وقت طويل."

"لا، جاك، لا! أنا أثق بك في أي وقت وأي مكان."

ضحك ماكموردو بمرارة.

"يا إلهي، لكم تعرفين القليل عني! روحك الطاهرة البريئة يا حبيبتي لن تخمن أبداً ما يوجد بداخلي. لكن، من هو هذا الزائر؟"

فتح الباب فجأة ودخل شاب بطريقة متسلطة. كان وسيم المظهر، بهي الطلعة، بنفس عمر وبنية ماكموردو. تحت قبعته السوداء الكبيرة، والتي لم يزعج نفسه بخلعها، كان يظهر وجه جميل الملامح بعيون حادة

واسعة وأنف حاد وكان ينظر بوحشية إلى الشخصين داخل غرفة الجلوس.

إنجي قفزت على قدميها فوراً وكلها ارتباك وخوف.

"تسرني رؤيتك سيد بالموين" قلت: "لقد أتيت أبكر مما أتوقع، تفضل بالجلوس."

ظل بالموين مكانه ويديه على خصره محدقاً ماكوردو.

"من هذا؟" سأل.

"إنه صديق لي. سيد بالموين نزيل جديد هنا. سيد ماكوردو أقدم لك السيد بالموين!"

ضغط الشابان رأسيهما بطريقة واثقة بعضهما لبعض.

"لماذا قد أخبرتك الآنسة إنجي عن حقيقة الوضع هنا؟" قال بالموين.

"لم أفهم أن هناك أية علاقة بينكما."

"حقاً؟ لا بأس. تستطيع أن تفهم ذلك الآن. تستطيع أن تأخذ هذا مني. هذه الغرفة لي، وستجد الطقس مناسباً جداً لنزهة في الخارج."

"شكراً لك. لا مزاج لي بالخروج."

"حقاً؟" لمعت عينا الرجل بوحشية. "لربما لك مزاج بالقتال، سيد نزيل؟"

"هذا صحيح" صاح ماكوردو ونهض فوراً: "لم تتفوه بأية كلمة مرحب بها أكثر من هذه."

"حقّ الرب جاك! آه حقّ الرب!" صاحت مسكينة بيتي: "آه، جاك! جاك! سيؤذيك."

"آه، إنه "جاك" إذاً؟" قال دالموين بغضب: "لقد وصلت إلى هذه المرحلة معه؟"

"أوه، تيد، كن متعقلاً – كن لطيفاً من أجلي تيد، إذا كنت تحبني فعلاً كن طيب القلب ومتسامحاً!"

"أظن يا بيتي أنه من الأفضل أن نغادر هذا المكان حتى نسوي نحن هذا الأمر بيننا" قال ماكوردو بهدوء: "أو لربما، سيد بالموين، ستخرج إلى الباحة الخلفية معي. إنها أمسية رائعة، والباحة هناك مناسبة."

"سأنتهي منك دون داعي لتوسيخ يداي بك" قال عدوه: "ستتمنى لو أنك لم تطأ هذا المكان حتى قبل أن أنتهي منك."

"ولا أي وقت مناسب أكثر من الآن" صاح ماكوردو.

"أنا من سيختار الوقت يا سيد. تستطيع ترك مسألة الوقت لي. انظر هنا."

فجأة رفع بالموين كم ذراعه الأيسر وأظهر إشارة غريبة عليه. كان مثلثاً داخل دائرة. "أتعرف ماذا يعني هذا؟"

"لا أعرف ولا أكترث لذلك!"

"ستعرف، أعدك بذلك. لن تكبر لتعرف ذلك أيضاً. لربما يمكن الآنسة بيتي إطلاعك على ما يعنيه. أما فيما يتعلق بك يا بيتي فستأتين إلي راكعة على ركبتيك – أتسمعين هذا يا فتاة؟ – على ركبتيك

وعندها سأخبرك ما سيكون عقابك. لقد نصحت – وأقسم بالرب أنني سأجعلك تقطعين!" حدق بها لحظة ثم استدار وغادر المكان.

ظل الصمت مسيطراً على المكان للحظات. ثم اندفعت الفتاة وأحاطت ماكوردو بذراعيها.

"جاك، يا لك من شجاع! لكن هذا لا ينفع – يجب أن نهرب الليلة – جاك – هذه الليلة! أمامك الوحيد. سيقتلك. لقد قرأت ذلك بعيونه الرهيبة. ما هي فرصتك الوحيدة أمام العشرات منهم، بالإضافة للرئيس ميغيني وكل قوة الجمعية خلفه؟"

أمسك بيديها، قبلها ودفعها بلطف نحو المقعد.

"اجلسي يا عزيزتي، اجلسي! لا تخافي من أجلي، أنا نفسي من الأحرار. وقد أخبرت والدك بذلك. لربما أنا لست أفضل من الآخرين وبهذا لا تجعلي مني قديساً. لربما ستكرهينني أنا بدوري الآن وقد أخبرتك بهذا."

"أكرهك؟ طالما بقيت على قيد الحياة لن أفعل ذلك أبداً. سمعت أن الجمعية مسالمة وخيرية بكل المناطق بعكس ما هي عليه هنا، ولهذا فلن أظن السوء بك مطلقاً. لكن ما دمت من الأحرار، فلم لا تذهب لمقابلة الرئيس ميغيني؟ ومن الأفضل أن تتصاحب معه! ودعه، أسرع جاك، أسرع! أوصل كلمتك له أنت أولاً وإلا فإن الكلاب ستتدافع خلفك."

"كنت أفكر بنفس الشيء" قال ماكوردو: "سأذهب على الفور وأسوي هذا الأمر. تستطيعين أن تخبري والدك أنني سأنام هنا الليلة وسأدبر اعتباراً من الغد مكاناً آخراً للسكن."

صالون ميميتي كان محتشداً بالناس كالعادة، لأن هذا المكان كان مركز التجمع لأقسى وأشرس رجال المنطقة. الرجل كان معروفاً ويحظى بحب طبعه الاجتماعي الطيب هنا كل أعيان الناحية. لكن بالإضافة لشعبيته وشهرته، فالخوف منه ورهبته كانا يسيطران ليس فقط على كل سكان الوادي بل على ساكني الجبال المجاورة أيضاً.

ميميتي كان المستشار الرسمي للعمدة وكان المسؤول عن إنشاء الطرق، مركز وصل إليه بواسطة أتباعه لمس أحدهم بعد ذلك يتوقعون المساعدة الخاصة لهم ويحصلون عليها بالتالي. كان الابتزاز والرشوة من الأمور المنتشرة جداً في هذا الوادي وكل صاحب محل أو متجر أو حتى منزل كان يدفع المبلغ المترتب عليه دون أي جدال ولا نهايته بانتظاره.

دفع ماكوردو الباب المتأرجح ودخل الصالون المليء بالدخان والرجال. المكان كان مضاءً بشكل جيد وكانت المرآة الكبيرة المعلقة على الجدران تزيد من هذا الضوء. كان هناك العديد من الساقين بثيابهم البيضاء وأكمامهم المرفوعة والذين كانوا يحضرون المشروب للرواد المكتظة. على آخر البار كان هناك رجل ضخم الجسم يضع سيجاراً بين شفتيه ويتكئ بمرفقيه على البار، حدسه ماكوردو دلته أن هذا الرجل هو ميميتي نفسه. كان الرجل بادي القوة والشراسة ولكن بنفس الوقت شعر أن قلب هذا الرئيس طيب رغم أن كلامه دون شك سيكون فظاً وقاسياً. وهكذا اقترب من مكانه بطريقته المعهودة الواثقة،

حضات وصار أمام ميعيتي والمجموعة محيطة به كي يحيط أسوار بالمعصم.

عيون ماكوردو الرمادية حدقت بشجاعة بعيون الآخر السوداء الخبيثة.

"حسناً أيها الشاب. لا أذكر أنني قد رأيت وجهك من قبل."

"أنا جديد هنا، سيد ميعيتي."

"لست جديداً كفاية حتى لا تعرف بأن تنادي أرض بلقبه الشائع."

"إنه المستشار ميعيتي، أيها الشاب" قال أحد الرجال من جانبه.

"أسف حضرة المستشار. أجهل طرق التعامل بهذا المكان، لكن أحدهم نصحني برؤيتك."

"جيد، لقد رأيتني. هذا كل ما ستراه. ما رأيك بي؟"

"حسناً، أيها السيد، لكن إن كان قلبك كبيراً بحجم جسدك وكانت روحك جميلة كملامح وجهك فإنني لن أطلب أكثر من ذلك."

"يا رجل، إنك لست أيرلندي داخل قلبك" رد ميعيتي.

"أنت جيد كفاية لتجاوز مظهري الخارجي؟"

"أجل" رد ماكوردو.

"ولقد طلب منك أن تراني؟"

"أجل."

"من طلب منك ذلك؟"

"الأخ سكانلان، 341، فيرمسا. شرب نخب صحتك حضرة المستشار. ونتعرف بشكل أفضل." رفع ماكوردو كأسه وجرعه دفعة واحدة.

ميغيني الذي كان يراقبه بعيون منقبضة رفع حاجبيه السوداوين بتعجب.

"أوه، الأمر كذلك إذاً؟" قال: "يجب أن ألقي بنظرة قريبة عليك سيد—"

"ماكوردو."

"نظرة قريبة أكثر، سيد ماكوردو، نحن لا نثق بالغرباء فوراً في هذه المقاطعة ولا نصدق كل ما يقال لنا أيضاً. تعال معي لحظة خلف البار."

كان هناك غرفة صغيرة خلف البراميل. دخلها ميغيني والشاب وأغلق الرئيس الباب خلفهم بعناية ثم جلس على أحد المقاعد وأخذ يحدق بالشاب الغريب والصمت يخيم على المكان.

كان ماكوردو يقف ويده في جيبه والأخرى تلعب بطرف شاربه. فجأة نهض ميغيني ورفع بوجه الشاب مسدساً صغيراً.

"ها نحن أيها المدرج" قال الرئيس: "إذا وجدت أنك تلعب أي لعبة معي فستكون نهايتك وخيمة."

"هذا ترحيب غريب" أجاب ماكوردو بكبرياء، "من رئيس في جمعية الأحرار لأخ غريب من نفس الجمعية."

"أوه، لكن عليك إثبات ذلك أولاً" قال محدثي: "ويسعدك
أعرف إذا قمت بذلك، أين كان موقعك؟"

"29، شيكاغو."

"متى؟"

"24 حزيران، 1872."

"تحت إمرة أي رئيس؟"

"جيمس هـ سكوت."

"من هو حاكم مقاطعتك؟"

"بارتولوميو ويلسون."

"هذا يبدو أنك تحت بهذا الاختبار. ما الذي تفعله هنا؟"

"أعمل، كما تعمل أنت - لكن بوظيفة متواضعة."

"أجوبتك سريعة كفاية."

"أجل، أنا دوماً سريع بالحديث."

"هل أنت سريع بالعمل أيضاً؟"

"كانت لي هذه الشهرة بين أولئك الذين يعملون معي."

"جيد، قد تجرب بأسرع مما تتوقع. هل سمعت أي شيء عن
الجمعية في هذه المنطقة؟"

"سمعت أنها تقبل الرجل كشقيق."

"هذا صحيح بالنسبة لك، سيد ماكموردو. لماذا تركت شيكاغو؟"

"سأشنق إذا أخبرتك بذلك!"

توسعت عيون ميعيتي. لم يعتد على أن يجيبه أحد بهذه الطريقة وقد استمتع بذلك.

"لماذا لن تخبرني بذلك؟"

"لأنه من غير المسموح لأخ أن يكذب على أخيه."

"إذاً الحقيقة سيئة جداً لتقال؟"

"تستطيع وصف الوضع بهذه الكلمات إذا أحببت."

"اسمع هذا يا سيد. لا تتوقع مني، كريس، أن أسمح لرجل أخفى كل ماضيه بدخول الجمعية."

ظهرت الحيرة على وجه ماكوردو، ثم تناول قطعة صحيفة من جيبه الصدري.

"أنت لن تشي بأخ لك؟" سأل الشاب.

"كنت لأصفعك على وجهك إذا عدت وتفوهت بإحدى كلمات أمي" صاح ميعيتي بحدة.

"أنت على حق حضرة المستشار" رد ماكوردو بلين: "يجب أن أعتذر منك. لقد تكلمت دون تفكير. أنا أعرف أنني بين أيدي أمينة. انظر إلى هذه الورقة."

نظر ميعيتي إلى الخبر الذي يتحدث عن إطلاق نار على المدعو جوناس بينتو، في وسط ساحة السوق، في شيكاغو، بالأسبوع الأول من **1874**.

"هذا عملك؟" سأل ميعيتي وهو يعيد الورقة إلى الشاب.

طأطأ ماكوردو رأسه موافقاً.

"ولماذا أطلقت النار عليه وأرديته؟"

"كنت أساعد العم سام بجني الدولارات. لكن دولاراتي لم تكن ذهبية كدولاراته، لكنها كانت تبدو جيدة وكانت تصنع بدقّة كاملة. هذا الرجل بيتو ساعدني لأسرب الدولارات داخل البلدان المجاورة. ثم قال أنه سيترك العمل معي ويعمل لحسابه الخاص. لربما كان قد بدأ يعمل لحسابه الخاص فعلاً. لكني لم أنتظر لمعرفة ذلك. أنا فقط قتلته وجئت إلى بلاد العجم هذه."

"ولماذا بلاد العجم؟"

"لأني قرأت بالصحف أن ساكني هذه المناطق لم يكونوا من القديسين."

ضحك ميميتي.

"كنت أولاً مزوراً، ثم مجرماً، ثم أتيت إلى هنا لاعتقادك أنك ستكون على الرحب والسعة؟"

"هذا هو الوضع تقريباً" أجاب.

"أعتقد أنك ستصل إلى البعيد، فرانكي. هل لا تزال بإمكانك صنع الدولارات المزيفة؟"

تناول ماكوردو نصف دزينة من الدولارات من جيبه: "هذه لم تلفت أبداً انتباه شرطة فيلادلفيا."

"لا تقل لي!" قرّب ميميتي الدولارات من الضوء. "أنا لا أرى أية فروقات بها. يا رب! أعتقد أنك ستكون أخاً قوياً ومساعداً كبيراً لنا. تستطيع البقاء مع وجود رجل شرير أو رجلين بيننا، أخي ماكوردو.

لأن هناك أوقاتاً علينا القيام بها بأدوارنا. سنصل فوراً إلى أمام الخط المسدود إذا لم نقضِ على أولئك الذين يضغطون علينا!"

"لا بأس. أعتقد أنني سأفوت نصيبي من القصاص مع بقية الشباب."

"يبدو أن عندك جرأة وشجاعة. أنت لم تحرك ساكناً أو حتى ترتعش حين رفعت بوجهك المسدس."

"ليس أنا من كان متعرضاً للخطر."

"بل من؟"

"أنت حضرة المستشار" تناول بلحظة مسدسه المحشو من جيبه: "كنت أحميك طوال الوقت. أعتقد أن صفعتي كانت ستكون سريعة بنفس سرعة طلقتك."

احمر وجه ميغيتي من الغضب للحظة ثم انفجر بالضحك.

"يا رب!" قال. "نحن لم نحظَ بشخص جريء وذكي مثلك منذ سنوات. أراهن أن الجمعية كلها ستتمنى أن تكون محظوظة بك... ما الذي تريده بحق الجحيم؟ ألا أستطيع التحدث مع الرجل هنا خمس دقائق دون أن تقاطعنا؟!"

ظهر الارتباك على وجه الساقي الذي كان قد فتح باب الغرفة.

"آسف حضرة المستشار. لكنه تيد بالموين. يقول إنه يريد أن يراك بهذه اللحظة."

الإجابة لم تكن ضرورية لأن بالموين نفسه حدق من فوق أكتاف الساقي بارتز داخل الغرفة ثم دخلها وأغلق الباب خلفه.

"إذاً" قال وهو يرمي ماكوردو بنظرة غاضبة: "لقد وصلت إلى هنا أنت أولاً. ألم تفعل؟ عندي كلمة أريد قولها لك حضرة المستشار، كلمة تتعلق بهذا الرجل."

"إذاً قلها هنا والآن، أمامي مباشرة" صاح ماكوردو.

"سأقولها حين أريد وبالمكان الذي أريد."

"صه! صه!" قال مكغينتي وهو ينهض من مقعده: "هذا لا ينفع. أمامك أخ جديد بالدوين. وليس أخي من سيحييه بهذه الطريقة. مد له يدك يا رجل، وصافحه!"

"أبداً!" صاح بالدوين بغضب.

"لقد عرضت عليه المبارزة إذا كان يعتقد أني قد أخطأت بحقه" قال ماكوردو. "سأقاتله بالقبضات وإذا لا يرضيه هذا فسأقاتله بالطريقة التي يحددها هو. الآن، سأترك مسألة الحكم بيننا لحضرة المستشار كي يقضي كما ينبغي للرئيس أن يفعل."

"ما الأمر إذاً؟"

"فتاة شابة يحق لها الاختيار بكل حرية شريك حياتها."

"حقاً؟" صاح بالدوين.

"كونكما شقيقين بنفس الجمعية فالفتاة لها كل الحق باختيار من تريد" قال الرئيس.

"أوه، هذا هو حكمك، أليس كذلك؟"

"إنه كذلك تيد بالدوين" قال مكغينتي بنظرة شريرة: "هل ستعارضه؟"

"هل سترمي برجل وقف إلى جانبك منذ خمس سنوات سابقة لصالح رجل التقيت به فقط منذ خمس دقائق؟ أنت لست رئيساً بمعنى الكلمة، جاك ميغيتي. وأقسم بالرب أنه حين يحين موعد التصويت المقبل فـ—"

هجم الرئيس عليه كالنمر، وأطبقت يداه حول عنق الآخر ورماه على أحد الكراسي المنتشرة داخل الغرفة. بعضه الجنون كان ليخنق بالدوين ويتركه جثة هامدة لولا تدخل ماكوردو.

"اهدأ حضرة المستشار! بحق الرب، اهدأ!" صاح ماكوردو وهو يبعد الأسد عن فريسته.

أفلت ميغيتي قبضته وبالدوين الشاحب أخذ يسعل بشدة ويستعيد أنفاسه التي كادت أن تنقطع ثم جلس على أحد الكراسي قربه.

"كنت تتساءل عن هذا منذ أيام، تيد بالدوين - الآن قد حصلت على ذلك!" صاح ميغيتي وصدره المتضخم يعلو ويهبط بشدة: "ترى خطر ببالك أنه إذا حان وقت التصويت قبلك ستكون من سيحتل مكاني. الجمعية وحدها تقرر ذلك. لكن طالما أنا الرئيس فلن أسمح لأي رجل أن يرفع صوته علي أو أن يعترض أحكامي."

"لا شيء عندي ضدك" تمتم بالدوين بصوت مبحوح.

"لا بأس إذاً" صاح الرئيس بنبرة مرحة: "لنشرب نخب انتهاء النزاع في الجمعية بعد ذلك كي تعلموا لن يكون هناك أي دم فاسد بيننا."

تناول كل منهم كأسه.

"إذاً" قال ميغيتي: "هذه هي نهاية الخلاف. ستتصافحان لتصم الخصمية من الآن فصاعداً وهذا أمر مفروغ منه كي يعرف الأخ بالدوين وكي تعرف قريباً دورك أيها الأخ ماكوردو فتتجنب المشاكل."

"أقسم أنني بطيء جداً بالاقتراب منه" قال ماكوردو ومد يده للدوين: "أنا سريع الغضب وسريع المسامحة. إنه دمي الإيرلندي الحار، كما يقولون لي. لكن الأمر انتهى بالنسبة لي. أنا لا أحمل أية ضغينة ضدك أخ بالدوين."

بالدوين صافح مصافحة اليد الممتدة بحق لأن عيون رئيس المدرسة كانت تحدق به. لكن وجهه الممتقع أظهر مدى استخفافه بكلمات الآخر الذي مد له يده.

"يا للصبيان العنيدين! حين أفكر أن هذا كان سيتسبب بعراك بين اثنين من أولادي. مقة وحدها التي ستقرر من تريد وليس الرئيس والحمد للرب! ستنتقل إلى المركز 341 أخ ماكوردو. لتتعلم أساليبه الخاصة وطرقه المختلفة عن شيكاغو. مساء السبت هو موعد انتقالك وإذا أتيت فستجعلك حراً وادي بيرميس إلى الأبد."

الفصل الثالث

المركز 341، فيرميسا

صباح اليوم التالي، نقل ماكوردو حاجياته من نزل آل شافتر وسكن في منزل الأرملة مكنمارا في الضواحي المتطرفة للمدينة. سكانلان الذي قابله في القطار جاء ليسكن معه. وكانت صاحبة المنزل عجوز طيبة كانت تؤمن لهم حاجياتهم وتتركهم طوال الوقت، وبهذا كانا يتحادثان بحرية وسرية عن كل شؤونهم وأحوالهم. العجوز شافتر رحب بقدوم ماكوردو إليهم كل أسبوع للعشاء وأخذت العلاقة تتوطد أكثر فأكثر بين الشاب والفتاة الجميلة.

أخذ اسم ماكوردو يشتهر بين أفراد جمعيته لشجاعته وفصاحته وذكائه المتوقد ولأنه كان يقوم بصنع الدولارات المزيفة فقد كان عمله سرياً جداً وكان بعض أفراد الجمعية القلائل والأكثر ثقة وأمانة ينقلون هذه الدولارات وبكميات قليلة عبر الحدود إلى المناطق المجاورة.

حدثت إحدى الصدف التي زادت من شعبية ماكوردو بين أفراد العصابة، وجعلتهم ينظرون إليه باحترام ورهبة.

فقد دخل يوماً أحد رجال الشرطة ببزته الرسمية إلى الصالون وصمت الجميع لحظة ورمقه العديد من الرجال بنظرات قاسية، لكن العلاقة بين رجال الشرطة والمجرمين ذات خصوصية مميزة في الولايات المتحدة وماكجينتي نفسه الواقف خلف مكتب المحاسبة لم يظهر دهشته حين دخل الشرطي إلى صالونه.

"شراب مزدوج" قال الشرطي: "لا أعتقد أننا قد التقينا من قبل حضرة المستشار؟"

"أنت ستكون المفتش الجديد؟" سأل ميغيني.

"هذا صحيح. نحن ننتظر منك، حضرة المستشار ومن كل الموظفين الجيدين أن يساعدونا لنحافظ على القانون والنظام في هذه البلدة. ماركو هو اسمي."

"سيكون أحسن حالاً بوجود حضرة المفتش" قال ميغيني ببرود: "لأن عندنا شرطتنا الخاصة بنا في البلدة ولسنا بحاجة لبضاعة مستوردة. أنت مجرد أداة يدفع بها من قبل العاصمة، يستأجرونك للغش أو لتخويف وملاحقة المواطنين المساكين."

"لا بأس، لا بأس، لن نتجادل حول هذا" قال الشرطي بمرح "أتوقع أن يقوم كل منا بمهامه الخاصة وبالطريقة التي يراها مناسبة. لكن لن نرى جميعاً نفس الطريقة."

كان قد شرب كأسه واستدار ليغادر حين وقعت عيناه على جيك ماكوردو.

"أهلاً أهلاً" صاح الشرطي وهو ينقل بصره من أعلى الشاب إلى أسفله. "هل قد التقيت بمعارف قدامى"

ابتعد ماكوردو عنه.

"لم أكن صديقاً لك أبداً ولا لأي شرطي لعين آخر طوال حياتي" قال الشاب.

"المعرفة لا تعني دوماً معرفة الأصدقاء" قال الشرطي: "أنت جاك ماكوردو من شيكاغو، أليس كذلك؟ ولا تنكر ذلك!"

هز الشاب كتفيه. "أنا لا أنكر ذلك" قال: "هل تعتقد أنني أخجل من اسمي؟"

"عندك سبب قوي لتكون كذلك على أي حال."

"ما الذي تقصده بهذا جو الشيطان؟" هتف وتكورت قبضته.

"لا، لا، جاك، حتى لو بقيت معي. كنت ضابطاً في شيكاغو قبل أن آتي إلى صحراء الفحم هذه وأعرف المحتال القادم من شيكاغو حالما تقع عيني عليه."

تصلب وجه ماكوردو وصاح: "لا تقل لي أنك مازلت من مركز شرطة شيكاغو؟"

"نفس الشخص يحبك الآن ويقف أمامك، لم ننس حادثة إطلاق النار على جوناس بنتو هناك."

"أنا لم أطلق النار عليه."

"حقاً؟ إنه برهان كافٍ وقوي. لا؟ لا بأس، موته قد أفادك وخلصك وإلا لكنت وقعت كمزيف للعملة أنت بنفسك. لكن والكلام بيني وبينك – لم يستطيعوا أن يثبتوا أي شيء ضدك – وأبواب شيكاغو مشرعة لك."

"أنا مرتاح جداً حيث أنا."

"جيد، قد أعطيتك حراً وأنت شخص سيء، كونك لم تشكرني على ذلك."

"لا بأس، أعتقد أن بيتك قريب، وبهذا أود أن أشكرك."

"يسعدني أن أراك تسير على الطريق السليم" قال الشرطي: "لكن إذا ابتعدت خطوة عن هذا الطريق فأنا أحذرك! لن تصبح على خير – وتصبح على خير حضرة المستشار."

غادر الشرطي المكان لكن بعد أن ترك خلفه بطلاً. فقد تحلّق الجميع حول ماكوردو الشاب الذي ذكّرت أعماله البطولية ببطلهم في شيكاغو بطريقة رمزية.

مساء السبت قُدّم ماكوردو إلى بعض أعضاء الجمعية. أراد الشاب ألا يثير دخوله معهم أية ضجة لكن كان هناك تقاليد خاصة بالجمعية أصر مسيّروها على تطبيقها. كان الاجتماع في أكبر قاعات منزل الاتحاد. كان الرئيس وبقية رؤساء السكوبور الأقل شأناً يجلسون حول طاولة ضخمة. البقية ومعظمهم من الشباب الأصغر سناً كانوا يجلسون على طاولة بنفس الشكل مجاورة للأولى. كان من الممكن جداً أن تصور أن هؤلاء الرجال يشكلون عصابة شريرة وكان ذلك واضحاً بوجوه الرؤساء الشرسة وعيونهم الموحشة القاسية التي تفتخر بطبيعة عملهم وبخدمتهم لأهداف ومصالح الجمعية دون الاكتراث أو بسبب ذلك بقتل وتعذيب أشخاص لا دافع لهم ولا حول. أشخاص لم يسبق لمعظم أفراد هذه الجمعية أن رأوهم من قبل. كانت الجريمة تحصل، فيتجادلون حول هوية من قام بالعملية ويتندرون بسرد تفاصيل الحادث وصرخات المجني عليه وتوسلاته. في البداية كانوا يتسترون بهذه الأمور، لكن بالوقت الذي وصل ماكوردو إليهم كانت قوتهم قد تضاعفت وازدادت وصارت هذه

الأحرار مجرد تسلية وتندر لهم، لأن فشل المحققين بالقبض عليهم وعدم تجرؤ أي شخص للشهادة ضدهم دفعهم للتعنت والسخرية بجمعيتهم وأعدائهم. الخطر الوحيد الذي كان يواجههم كان يكمن في صحيفتهم نفسها، لكنهم كانوا يوقفون صحيفتهم عدداً وعدة.

حذّر ميميني من خطر سيواجهه لكنه لم يكن يعرف ما هو فالخطر كان يسير الآن مع شيء من التأني نحو الغرفة الخارجية. مرة أو مرتين سمع اسمه يذكر بين الرجال داخل غرفة الاجتماع فأدرك أنهم كانوا يتناقشون بأمر يتعلق به.

دخل أحد الحرس الداخليين المكان وكان بصحبته جاك ماكوردو المعصوب العينين والمغطى الرأس بكيس كبير من القماش. كانوا قد رفعوا له كم ذراعه الأيمن ومشى الحارس به ثم توقف.

سمع ماكوردو صوت ميميني نفسه بعيد وصارم.

"جاك ماكوردو" قال الصوت: "هل كنت فرداً من أفراد الرجال الأحرار فيما مضى؟"

انحنى ماكوردو بموافقة.

"كنت تعمل في المركز 29، شيكاغو؟"

انحنى مجدداً.

"الليالي مظلمة غير حميدة" قال الصوت.

"أجل، يسافر الغرباء بها" رد الشاب.

"الغيوم كثيفة."

"أجل، العاصفة تقترب."

"هل المجلس راضٍ؟" سأل لويس.

تمتم الجميع بموافقتهم.

"علم يا أخ ماكوردو بإشارتك وإجاباتك أنك فعلاً واحد منا."

قال ميغيتي: "يجب أن تعرف على كل حال أننا بهذه الطريقة وبطرق أخرى نملك صفوفاً خاصة. وكذلك واجبات خاصة تقع على كاهل أفرادنا. هل أنت مستعد لتجري عليك الاختبار؟

"أجل."

"هل قلبك صلب؟"

"أجل."

"تقدم خطوة إلى الأمام لتبرهن ذلك."

حالما نطق الكلمات تقدم الشاب وشعر بوجود نقطتين صلبتين أمام عينيه، وأنه إذا تابع التقدم فإن هاتين النقطتين ستشكلان خطراً على سلامة عينيه. لكنه لم يأبه وتابع تقدمه فتلاشى الضغط فوراً وسمع تمتمة الجمهور بالاستحسان.

"إنه صاحب قلب صلب" رد الصوت: "هل تتحمل الألم؟"

"أجل."

"اختبروه!"

حافظ على كل أعصابه وقوته حتى لا يصرخ بعنف، فالألم المريع الذي شعر به على ذراعه جعله يعض على شفته بقوة ويضغط يديه حتى أقصى درجة كي لا يصرخ متأوهاً.

"أستطيع تحمل ألم يفوق هذا."

هذه المرة الاستحسان والإعجاب كان أقوى. لم يسبق للجمهور الغفير أن شهدوا عرضاً أجمل من هذا في المركز. ربتت الأيادي الكثيرة على ظهره وانتزع أحدهم غطاءً عن رأسه. أخذ يرمش عينيه ويبتسم وسط تهنئات أخوانه له.

"كلمة أخيرة أخ ماكوردو" قال ميغسي: "لقد أقسمت على الولاء والسرية وأصبحت تعرف عقاب من يحاول الانشقاق والارتداد الذي سيكون الموت الحتمي السريع."

"أجل"

"وعليك بطاعة أوامر الرئيس تحت كل الظروف."

"أجل."

"إذاً باسم المركز 341، يسرنا أن نرحب بك كعضو به ونخول لك كل الامتيازات الخاصة بنا وعليك كل الواجبات المطلوبة منا. ضع الشراب على الطاولة، أخ سكانلان، وسنشرب نخب شقيقنا الجديد."

أحضروا له معطفه ولكنه تفحص ذراعه التي كانت لا تزال تؤلمه بشدة. توجد على اللحم أثر الدمغة الحديدية الحمراء. مثلث محصور داخل دائرة. اثنين من المنتسبين حوله رفعوا أكمامهم وأروه نفس العلامة على ذراعيهم.

"جميعنا يملك هذه العلامة" قال أحدهما: "لكن أحدنا لم يكن بمثل شجاعتك."

"أظن أن هذا كل شيء" قال لكن الأمر كان لا يزال على حاله. بعد تناول الشراب بدأ العمل وأخفى ماكوردو دهشته وذهوله لما يدور حوله.

قال ميغيني الرئيس: "العمل الأول في الرزنامة الأسبوعية هو قراءة هذه الرسالة المرسلة إلينا من قسم ميلبون كاونتي، مركز 249 برئاسة السيد ويندل. وهي تقول:

"سيدي العزيز

هناك عمل لنقوم به فيما يتعلق بشترو ربي، هناك أحد مدمج بمنجم قرب هذا المكان. تذكر أن مركزك يدين لنا بخدمة سابقة، ألا وهي القضاء على اثنين من رجال الدورية في مصلحة في خريف ماضي. إذا أرسلت إلينا اثنين من رجالك الأشداء سيكونوا تحت إمرة هيغنز من هذا المركز. لسي معرف عنوانه. هو سيطلعهم على مكان وطريقة تنفيذهما للأمر.

"J. W. WINDLE D. M. A. O. F. –

"ويندل لم يرد أي طلب من قبل" تابع الرئيس: "حين احتجنا إليه ولهذا فنحن لن نرفض له طلبه الآن. من مستطوع لهذه المهمة؟

العديد من الشباب رفع يده. نظر الرئيس إليهم بعين الرضا والابتسام.

"أنت ستفي بالغرض كورماك إذ قمت بالعمل كالمرة الأخيرة لن تخطئ، وأنت، ويلسون."

"لا أملك مسدساً" رد ويلسون الذي كان مراهقاً صغيراً.

"إنه عملك الأول، أليس كذلك؟ لا بأس، سيكون عليك التورط بعض الألعاب التمويهية بين الحين والآخر ستكون هذه بداية ضخمة لك. أما فيما يتعلق بالمسدس، فستجده مجهزاً قبل رحيلك. إذا أتيت يوم الاثنين فهذا سيكون وقتاً كافياً لتجهيزه لك. ستحظى بترحيب حار حين تعود."

"هل هناك أي مكافأة هذه المرة؟" سأل كورماك.

"لا تأبه بشأن المكافأة. ستقوم بالأمر بشكل شرفي. وربما حين تنهي الأمر فستجد بعض الدولارات أسفل الصندوق."

"ما الذي فعله الرجل المقصود؟" سأل ويلسون الصغير.

"بالطبع لا يحق لك أن تسأل هذا السؤال. لقد صدر الحكم عليه هناك. هذا ليس من شأننا. كل ما علينا القيام به هو تلبية طلبهم، تماماً كما يفعلون هم لنا. وبما أننا فتحنا هذا الموضوع فسأخبركم أن أخوين من مركز ميرتون سيأتيان ليقوما بعمل خاص الأسبوع المقبل."

"من هم؟" سأل أحدهم.

"الأفضل، من الأفضل عدم طرح الأسئلة. إذا كنت لا تعرف شيئاً فلن تتمكن من الاعتراف بشيء ولن يحل بكم أية مشاكل. لكنهما رجلان سيقومون بعمل نظيف حين يحلون عندنا."

"وفي وقت أيضاً!" صاح ويلسون: "الشعب يصبح متمرداً بهذه الأنحاء. الأسبوع الماضي فقط رفض بلكر دفع علاوة لثلاثة من رجالي، وسينال جزاءه عاجلاً."

"بماذا؟" سأل ماكوردو بهمس للشخص الجالس بجانبه

"طلقة قاتلة تسكن قلبه!" صاح زميله بصخب: "ما رأيك بطرفة أيها الأخ؟"

روح ماكوردو المجرمة كي يسمو قد تشربت ما كان يدور حوله هو الذي أصبح الآن جزءاً منه.

"أستمتع بهذا كثيراً" قال: "إنه مكان مناسب لشاب من الحديد."

الكثير من الجالسين حوله سمعوا كلماته وأعجبوا بها.

"ما الأمر؟" صاح أحد قادة السكورر من آخر الصالون.

"إنه الحوت الجديد، سيدي، الذي يجد أساليب تثير إعجابه."

وقف ماكوردو فوراً. "أريد أن أقول سيدي الرئيس أنه إذا احتجتم لأي رجل لتقيموا بأي عمل فسيكون لي شرف تقديم خدمة للمركز."

حازت كلماته على كل الإعجاب والتقدير. بدا وكأن شمساً جديدة كانت تشرق فوق الأفق. بدا هذا التحسن سريعاً جداً.

"أرى" قال الرئيس المسن: "أن ينتظر الأخ ماكوردو فرصته المناسبة التي سيقدمها له المركز لاحقاً."

"بالطبع هذا ما قصدته بالضبط. أنا تحت أمركم في أية خطة."

"سيأتي وقتك يا أخ" قال المسن: "فقد رأينا أنك رجل ذو إرادة حديدية ونرى أنك ستقوم بعمل مثمر في هذه الأنحاء. هناك مسألة صغيرة سنقوم بها هذه الليلة لربما ترغب بالمشاركة بها."

"سأنتظر وصول العمل المهم."

"تستطيع تجيء هذه الجمعية على كل حال لتشهد صرفه بتقييد الأعضاء. سنطلعكم على هذا الأمر لاحقاً. في هذه الأثناء نظر إلى الأوراق أمامه: "عندي نقطة أو نقطتين أود طرحهما قبل انتهاء الاجتماع. أولاً، نريد أن نسأل مسؤول الصندوق عن حجم السيولة الموجودة لديه. هناك معاش أرملة جيم كاروي. لقد قتل أثناء قيامه بالعمل للجمعية وعلينا تأمين معيشتها."

"لقد قتل جيم كاروي أثناء محاولة قتل تشيستر ويلكوكس من ماري كريك" قال أحد زملاء ماكوردو

"السيولة بحالة جيدة في هذا الوقت" قال أمين الصندوق: "الشركات كانت كريمة معنا. ماكس لينذر وشركاه دفع خمس مئة جنيه والكر دفع مئة لكي أعدت له المبلغ وطالبته بخمس مئة. إذا لم أسمع منه بظرف أسبوع فسنشد له أذنه. كان عليه حرق مخبزه قبل أن يشتهر ويتطور. وشركة التعدين الخاصة قد دفعت المبلغ المحدد عليها بدورها. عندنا ما يكفي لمقابلة كل ارتباطات."

"هناك مسألة أريد أن أطرحها عليكم" قال الرئيس موريس صاحب الوجه الطيب والحواجب الكثيفة: "ألاحظ بأننا نضغط بشدة على أصحاب الأعمال الصغيرة وهذا بالتالي دفع العديد منهم للمهاجرة وترك المكان وصارت الشركات الضخمة تستولي على الشركات الصغيرة للمهاجرين هؤلاء. والأمثلة على ذلك كثيرة. العمال المستخدمين يهابون ويخضعون لأوامرنا بعكس الشركات الكبرى التي تتمتع بالسلطة والقوة من نيويورك ذاتها وليس فقط من وادي فيرمسا وهنا فإنا أرى أن

تخفف الضغط على أصحاب رؤوس الأموال الصغيرة هؤلاء وإلا فإن الشركات الكبرى ستتمكن من ملاحقتنا وستؤدي إلى هلاكنا إذا تعرضنا لها."

"وكيف سيتسببون بهلاك سيد مترجم؟" صاح ميغيتي: "هل بواسطة الشرطة؟ نصف الشرطة تقتص منا ومتواطئة معنا والنصف الآخر يخشانا ويهابنا. أم بواسطة المحكمة والقانون؟ أم جرب ذلك من قبل؟ وما الذي حل بنا من جراء ذلك؟ لا شيء."

"هناك قاضٍ قد نظر بهذه القضية" قال الأخ موريس.

صرخة غضب كبيرة قامت ضد كلام موريس.

"علي فقط أن أرفع إصبعي هكذا" قال ميغيتي محتجا. "حتى يمتلئ المكان كله بألف رجل يحرقون المكان من أوله حتى آخره" ثم فجأة ارتدت حدة صوت الرئيس وبرقت عيونه المرعبة: "اسمع، أخ موريس، عيني عليك منذ فترة. أنت لا تمتلك قلبا داخل صدرك وتحاول أن تخلع قلوب الباقين. سيكون يوم شؤمك، حين يدرج اسمك على اللائحة السوداء، وأعتقد أنه على وضعه هناك فعلا."

شحب لون وجه موريس بشدة وارتعشت أقدامه فتهالك على كرسيه وارتشف جرعة من كأسه بيد مرتجفة قبل أن يتمكن من النطق.

"أعتذر حضرة رئيس المحفل، منك ومن كل أخ هنا بالمركز إذ كنت تفوهت بما يجب علي أن أتفوه به. أنا عضو مخلص والجميع يعرف ذلك وخوفي من أن يلحق أي أذى بالمركز هو دافعي للتفوه

ما فات. لكن عندي ثقة كبيرة بحكمك أكثر من مدى ثقتي بحكمي الخاص، سيدي الميجر. أعدك أني لن أعرضك مجدداً."

انفرجت أسارير الرئيس لسماعه هذه الكلمات. "جيد جداً، أخ موريس. كنت لأأسف بنفسي إذا اضطررت لتوجيه درس لك ثانية. لكن طالما أنا على هذا الكرسي فسنكون كف يد واحدة في هذا المركز. والآن أيها الرجال—" تابع وهو ينظر حوله: "إذا تابع الصحفي مستعر تهجمه علينا فإن نهايته ستكون على أيدينا مهما كانت النتائج. لكني أظن أن بإمكاننا توجيه تحذير قاس له في البداية. هل ستتدبر أمر ذلك أخ بالدوين؟"

"بكل سرور!" قال بالدوين بحرارة.

"كم ستصطحب معك؟"

"نصف دزينة من الرجال وشاب لحراسة الباب. ستأتي، جاور، وأنت مانسل وسكانلان مع جيم وستون."

"وعدت الأخ الجديد بالذهاب أيضاً" قال الرئيس.

نظر تيد بالدوين إلى ماكموردو بشكل توضح كرهه وعدم مسامحته للأخير.

"يستطيع المجيء إذا أراد" قال بصوت واثق: "هذا يكفي. كلما أسرعنا بالعمل كلما كان أفضل."

تتابع الاجتماع بين صيحات الرجال وهتافاتهم ومجموعة مثيرة غادرت المكان للقيام بمهمتها المحددة.

ساروا بالطريق المظلم ووصلوا إلى باب "هيرمنسا هيرالد"

خاطب بالدوين ماكوردو قائلاً: "أنت أخ ماكوردو ابق هنا على الباب وحذرنا إذا قدم أحدهم وسيبقى الأخ جيم معك. الباقون اتبعوني."

صعد بقية الرجال إلى المبنى. لحظات وسمع صوت صراخ النجدة ثم تلاه صوت تكسير كراسي وعصي. بعد دقائق وصل رجل إلى أسفل المبنى وسقط قرب قدمي ماكوردو والحارس الآخر فيما كان الرجال يضربونه بعصيهم الغليظة. ضربات كانت تنهال على جسد الصحافي وتنبئه بالألم. توقف الباقون عن الضرب لكن بالدوين تابع مركزاً على رأس الرجل الذي تخضب شعره الرمادي ببقع الدم. ظل بالدوين على حاله إلى أن أوقفه ماكوردو بنفسه.

"ستقتل الرجل" صاح ماكوردو: "توقف!"

نظر بالدوين إليه بذهول.

"اللعنة عليك!" صاح بوحشية: "من أنت لتتدخل بيد أنت الجديد بالمركز؟ تراجع!" رفع عصاه مجدداً لكن ماكوردو سحب مسدسه من جيبه.

"تراجع أنت بنفسك!" صاح: "سأفجر رأسك إذا مددت يدك علي. فيما يتعلق بالمركز، ألم تكن أوامر الرئيس ألا نقتل الرجل وما الذي تفعله الآن غير هذا؟"

"ما يقوله صحيح" علق أحد الرجال.

"يا إلهي! من الأفضل أن نتراجع جميعاً!" صاح أحد الرجال: "السواعد كلها تصاب وكل العملة ستكون هنا بظرف دقائق

تراجعوا جميعاً فعلاً والأصوات المتزايدة تسمع في كل مكان، عاد قسم منهم إلى مكان الاجتماع حيث أبلغوا الرئيس بتقدم العمل فيما عاد القسم الثاني وصحبهم ماكوردو إلى مساكنهم.

الفصل الرابع

وادي الخوف

حين استيقظ ماكموردو صباح اليوم التالي تذكر جيداً ما الذي حدث في اليوم السابق. فرأسه كان لا يزال يؤلمه من جراء الشراب وذراعه كان لا يزال يؤلمه بشدة أيضاً. تناول فطوراً متأخراً ثم أخذ يتصفح صحيفة الهيرالد وقرأ ما كُتب في عمود خاص:

غضب في مكتب هيرالد –

محرر بجروح خطيرة

المسألة الآن بين أيدي الشرطة، لكن لا يوجد أمل كبير بالتوصل إلى أية نتيجة كما هو الوضع دوماً. لقد تم التعرف على بعض الرجال وهناك أمل بإصدار عدة أحكام ضدهم بسبب هذا الهجوم الوحشي، والذي لا داعي لذكره، فذلك التجمع المعروف عاث فيه البلاد منذ سنوات، والذي هاجمته الصحيفة منذ أيام. أصدقاء السيد ستانغر لن يصمتوا عن هذا الأمر. وقد سروا لسماعهم أنه رغم الأذية الكبيرة التي تعرض لها في كل أنحاء جسده ورأسه فإن حياته ليست بخطر.

في الأسفل كتب أن سرية من رجال الشرطة المدججين بالسلاح قد استدعوا لمساندة قوى الشرطة في البلدة. كان ماكموردو قد وضع الصحيفة جانباً وأخذ يشعل غليونه حين سمع صوت دقة على الباب. عادت بعدها صاحبة المنزل إليه بورقة سلمها لها بعض الأولاد. تقول الورقة المرسلة –

"أرغب بالتحدث إليك، لكني أفضل ألا يكون ذلك في منزلك.
ستجدني قرب تلة ميلر. إذا ذهبت إلى هناك الآن فسأكون بانتظارك
لإطلاعك على شيء بالغ الأهمية."

قرأ الرسالة مرتين محاولاً معرفة هوية المرسل. لو كان الخط نسائياً لأدرك ذلك ولكانت إحدى المغامرات التي مرت به من قبل. لكن الخط كان لرجل، ولرجل مثقف أيضاً. في النهاية وبعد القليل من التردد قرر الذهاب إلى المكان المقصود.

تلة ميلر كانت حديقة عامة في وسط المدينة. في الصيف تشكل مكاناً رائعاً يرتاده السكان، لكن في الشتاء تكون مهجورة وخالية. أعلى التلة كانت تطل على كل المدينة والوادي المحيط بها. مشى ماكوردو على الطريق داخل التلة ووصل إلى المطعم المهجور الذي يمثل مركز التسلية في الصيف. بجانبه كان هناك رجلاً يضع قبعة كبيرة على رأسه. حين اقترب رأى ماكوردو وجه موريس المألوف. تبادلوا علامة المركز.

"لماذا لم تضع اسمك على الورقة؟"

"على الشخص أن يكون حذراً يا سيد، لا أحد يعرف ما الذي يحصل به. الشخص لا يعرف بمن يثق ومن لا يثق."

"بالطبع بإمكانك الوثوق بأخ لك في الجمعية."

"لا، لا، ليس دوماً" صاح موريس بشدة: "كل ما نقوله وحتى ما نفكر به يصل إلى مسامع ذلك الرجل معيتي."

"اسمع" قال ماكوردو بصلابة: "الليلة الماضية فقط تعهدت بالولاء والإخلاص للرئيس. هل ستطلب مني الحنث بقسمي هذا؟"

"إذا كان هذا تصورك" قال موريس بحزن: "فسأقول إنه يؤسفني استدعاؤك إلى هنا. تصل الأمور إلى طريق سيء حين لا يستطيع شخصين حزبين تبادل الأفكار وما يجول بخاطرهما."

ماكوردو الذي كان يراقب موريس بانتباه استرخى بسماعه هذه الكلمات.

"بالطبع كنت أتحدث عن نفسي فقط" قال الشاب: "أنا جديد كما تعرف، وأنا أستغرب كل ما يحدث حولي. لست أنا من سيفتح فمه للتحدث، أنا هنا للاستماع وهذا ما سأفعله."

"ولتفقه سريس ميعيتي!" تابع موريس بمرارة.

"في الواقع أنت تظلمني" صاح ماكوردو: "عن نفسي أنا وفي للجمعية، ولهذا أقول لك مباشرة، إنني سأكون شخصاً بلا شرف إذا رددت لأي كائن آخر ما ستقوله لي الآن ما دمت لا ترغب بأن يعرف أي كائن آخر ما ستقوله لي. لن يصل الأمر إلى غيري مع أنني أحذرك أنك قد لا تحظى لا بمساعدة أو بتعاطف."

"لا بأس، ماذا عندك؟"

"إذا خنتني فلتحل اللعنة عليك!"

"بالطبع لقد وعدتك بذلك."

"سأسألك إذاً حين انضممت لجمعية رجال الأحرار في شيكاغو وأقسمت على التعهد الذي سيصل بك إلى مجال الإجرام والقتل؟"

"إذا كنت تسميه إجراماً" أجاب ماكوردو.

"أسميه إجراماً!" صاح موريس وصوته يرتعش من الحنق: "لقد رأيت القليل منه إذا كنت قد رأيت أي شيء بعد. كان جرماً سافراً حين تعرض رجل للضرب إلى أن غطت الدماء جسده وهو رجل بعمر والدك؟ أكان هذا إجراماً – أو ماذا ستسميه؟"

"بعضهم سيقولون أن هذه كانت حرباً" قال ماكورلينو: "حرب بين طبقتين اجتماعيتين. يحاول كل طرف ضرب الآخر بكل قوته."

"هل فكرت بشيء مثل هذا حين تعهدت بالخير في شيكاغو؟"

"لا بالحقيقة لا."

"ولا أنا كذلك حين انضممت لفرع الجمعية في بلادنا. كانت مجرد جمعية لعمل الخير ونادي يجتمع فيه الأصحاب. ثم سمعت عن هذا المكان – سمعت عن السمعة التي سمعت بها أنت! – وأتيت إلى هنا لأحسن من وضعي. زوجتي وأطفالي الثلاثة حضروا معي. بدأت بافتتاح متجر في وسط الساحة. وازدهرت أعمالي. انتشرت الأخبار أنني من الأحرار وبهذا فقد أجبروني على الالتحاق بهم. تماماً كما فعلت أنت في الليلة الماضية. لبست وصمة العار على ذراعي وشيء أسوأ وُصم داخل قلبي. وجدت أنني كنت تحت إمرة رجل شيطان يده ملطخة بالدم. ماذا كان بإمكاني أن أفعل؟ كل كلمة نطقت بها لأصلح ما فسد كانوا يعتبرونها خيانة. تماماً كما حدث ليلة الساحة. لا أستطيع الهروب، لأن كل ما أملكه بالعالم موجود داخل متجري إذا تركت التجمع. أعرف جيداً أن هذا يعني حكماً علي بالإعدام والرب وحده يعرف ماذا يعني ذلك

لزوجتي وأطفالي. آه، يا رجل، هذا مريع – مريع!" وضع يديه على وجهه وأخذ ينتحب بحرقة.

هز ماكوردو كتفيه.

"أنت رقيق جداً للقيام بهذه الأعمال" قال: "أنت من النوع الذي لا يناسب هذا النوع من العمل."

"أنا عندي الضمير والحس. لكنهم جعلوني مجرماً معهم. لقد اختاروني لهذا العمل. إذا انسحبت فأنا أعرف تماماً ما الذي سيحصل لي. ربما أنا جبان. لربما هو التفكير الدائم بزوجتي المسكينة وأطفالي هو الذي يجعلني هكذا. وربما هذا ما دفعني للموافقة رغماً عني على القيام بالمهمة الأولى التي أسندوها لي. ذهبت. المنزل كان منعزلاً ويبعد حوالي عشرين ميلاً عن هنا. طلبوا مني الانتظار وحراسة باب المدخل تماماً كما فعلت أنت البارحة. لم يثقوا بي لتنفيذ هذا العمل. الآخرون دخلوا المنزل. حين خرجوا أيديهم كانت مخضبة بالدم حتى الرسغ. حالما ابتعدنا سمعنا صوت طفل يصرخ خارجاً من المنزل. كان طفلاً في الخامسة قد شاهد والده وهو يُقتل أمام عينيه. كدت أن يُغمى علي من هول ما فعلوا لكن علي الظهور بمظهر اللامبالي لأني كنت أعرف أنه إذا ما فعلت فسيخرجون من بيتي عندئذ كما خرجوا من منزل هذا الرجل المسكين اليوم وسيصرخ طفلي كما صرخ الصغير الآن.

لكني كنت مجرماً، لمشاركتي الجزئية بارتكاب الجريمة، أنا ضائع في الدنيا وضائع في الآخرة. أنا رجل عنده حس الديني الجيد لكن أحداً لن يستمع لي ويصدق إيماني ويسامحني على ما فعلت. أنا من السكورز

الآن. أحداً لن يخطر إلي إلا من هذا المنظار. وأنا أراك الآن تخطو الخطوة الأولى التي خطوتها أنا قبلك على طريق الفساد والشر والدم. وأنا أسألك ما هي النهاية؟ هل أنت مستعد لتكون قاتلاً بدم بارد أيضاً؟ أم أن بإمكانك فعل شيء آخر لتغيير هذا؟"

"ماذا سنفعل؟" سأل ماكوردو مختصراً: "أن نتخلى عنهم؟"

"وربي لن أفعل!" صاح موريس: "أستطيع مجرد التفكير بالأمر سيكلفني حياتي."

"لا بأس إذاً" قال ماكوردو: "أعتقد أنك رجل ضعيف تحمل المسألة أكثر مما تستحق."

"أكثر مما تستحق! انتظر حتى يمضي على إقامتك هنا فترة أطول. انظر إلى الوادي! انظر إلى غيمة الدخان الكثيفة المدخنة الموجودة فيه! ستتحرك أن غيمة الجريمة الأكبر والأكثر كثافة تسرح فوقه، فوق رؤوس ساكنيه. إنه وادي الخوف - وادي الموت. الرعب موجود داخل قلوب الناس من الفجر وحتى الفجر. انتظر أيها الشاب وستدرك ذلك."

"سأطلعك على رأيي بذلك حين أرى المزيد" قال ماكوردو بعدم اكتراث: "ما هو واضح تماماً أنك لست الرجل المناسب لهذا العمل، وأنه كلما أسرعت بالبيع - مهما كان الثمن الذي ستبيع به - كلما كان أحسن لك. ما قلته بأمان معي، لكن، يا رب، إذا كنت مخبراً "

"لا، لا!" قاطعه موريس بصدق.

"لنبق الأمور عند هذا الحد. سأحتفظ بما قلته في عقلي ولربما سأعود إليه يوماً ما. أتوقع أنك قصدت الخير بإطلاعي على الأمر. الآن سأعود إلى منزلي."

"كلمة واحدة قبل أن تغادر" قال موريس: "لربما قد شاهدنا أحدهم ونحن نتحدث سوياً الآن، وقد يطلبون معرفة الموضوع الذي كنا نناقشه."

"آه! هذه فكرة حريصة جداً."

"لقد عرضت عليك العمل كمحاسب في محلي"

"وأنا قد رفضت ذلك. هذا هو موضوعنا. حسناً، إلى اللقاء أخ موريس ولتسير الأمور بطريقة أفضل معك في المستقبل."

بنفس تلك الأمسية وبينما كان ماكوردو يدخن سيجارة قرب المدفأة في منزله وهو غارق بالأفكار، فتح الباب فجأة ودخل بريس مبتسماً بنفسه. رمى التحية الخاصة بالجمعية ثم جلس قبالة الشاب وحدق به لبعض الوقت، رد ماكوردو بتحديقه بصورة مماثلة.

"لست زائراً اجتماعياً ماكوردو" قال أخيراً: "أظن أنني مشغول جداً لدرجة لا تمكنني من رد الزيارات للأشخاص الذين يزورونني. لكني أردت فعل ذلك والقدوم لزيارتك تحت سقف منزلك هذا المساء."

"يشرفني حضورك حضرة المستشار" رد ماكوردو بحرارة "هذا شرف لم أتوقعه."

"كيف هو ذراعك؟" سأل ميغينتي.

"لا بأس، أنا لم أسدد بعد، لكنه كان يستحق الأمر" قال الشاب.

"أجل، إنه يستحق ذلك" أجاب الآخر: "أولئك المحصلين الذين يحافظون على ولائهم ويساعدون الجمعية هنا. ما الذي كنت تتحدث بشأنه مع الأخ موريس هنا صباح عند ثة ميلر؟"

جاء السؤال بشكل مفاجئ تماماً وكان من الجيد أنه قد حضر الجواب من قبل. انفجر ماكوردو بالضحك.

"لم يعرف موريس أن بإمكاني كسب عيشي فيما أنا جالس هنا في البيت. ولا يجب أن يعرف ذلك، لأن لديه ضمير حي لأمثالي من الرجال. لكنه رجل طيب القلب. كان يظن أنني عاطل عن العمل وبحاجة له فعرض علي العمل عنده بالمخزن كمحاسب بأجر مناسب."

"آه، هذا كان الموضوع؟"

"أجل، هذا كان الموضوع."

"وأنت رفضت ذلك؟"

"بالطبع، ألا أستطيع كسب أربعة أضعاف ما سيدفعه لي وأنا هنا في غرفتي وبعمل يستغرق ساعتين فقط؟"

"هذا صحيح. لكني لن أختلط كثيراً مع موريس لو كنت مكانك."

"ولم لا؟"

"حسناً، أظن لأني أقول لك هذا. ذلك يكفي لبعض الأشخاص في هذه الأنحاء."

"قد يكون هذا كافياً لمعظم الأشخاص في هذه الأنحاء، لكنه ليس كافياً لي، حضرة المستشار" قال ماكوردو بجرأة. "إذا كنت حكماً على الرجال فأنت ستعرف ذلك بالطبع."

العملاق المدهش حدق به وتصلبت أصابعه على الكأس التي بين يديه كأنه كان على وشك ضرب رأس محدثه به. ثم ضحك بطريقته العالية المجلجلة.

"أنت بطاقة غريبة بالطبع" قال: "إذا أردت الأسباب فستطيعها عليه. ألم يقل لك موريس أي شيء ضد جمعيه؟"

"لا."

"ولا ضدي؟"

"لا."

"هذا لأنه لم يجرؤ على الوثوق بك. لكني أعرف قلبه ليس أخاً وفياً. أعرف ذلك تماماً ولهذا أراقبه، وأنتظر الوقت الذي أقضي به عليه. أعتقد أن الوقت يقترب. لا مكان للخروف الضعيف في قطيعي. لكن إذا صادقت الرجل الغير وفي، فسأعتقد أنك بدورك غير وفي لي، أفهمت؟"

"لا فرصة لي لمصادقته. لأني لا أحب ذلك الرجل ولا أعجب بمثله" أجاب ماكوردو: "أما بالنسبة لكوني غير وفي، فلو صدر هذا الكلام من أي رجل غيرك أنت لما تمكن من نطق كلمة واحدة أخرى في حياته."

"هذا يكفي" قال ميغيتي وهو يجرع ما تبقى داخل كأسه "لقد أثبت لأعطيت هذه الكلمة وقد فعلت."

"أود أن أعرف" سأل ماكوردو: "كيف عرفت أني قد قابلت موريس هذا الصباح؟"

ضحك ميغيتي.

"عملي هو معرفة كل ما يجري في هذه المدينة" قال: "أعتقد أنه من الأفضل أن تتذكر دوماً أني أسمع كل ما يقال. لقد انتهى الوقت وسوف أقول فقط—"

لكن جملته لم تنتهي لأن الباب فتح فجأة وبقوة وظهر على عتبته ثلاثة رجال شرطة غاضبين. نهض ماكوردو فوراً وأوشك أن يسحب مسدسه لكنه رأى أن مسدسين كانا موجهين نحو رأسه. دخل الغرفة الضابط المسؤول والذي كان النقيب مارفن نفسه.

هز النقيب رأسه وابتسم قليلاً وهو ينظر لماكوردو.

"لقد اعتقدت أنك ستتورط بالمشاكل سيد ماكوردو اللعين من شيكاغو" قال: "ألا تستطيع الابتعاد عنها؟ ضع قبعتك وتعال معنا."

"أعتقد أنك ستدفع ثمن هذا، نقيب مارفن" قال ميغيتي: "من أنت، أريد أن أعرف، حتى تحطم الأبواب المغلقة بهذه الطريقة وتعتقل الرجال الشرفاء المطيعين للقانون؟"

"لا تنفعل بهذه المسألة حضرة المستشار ميغيتي" قال النقيب: "نحن لسنا نعتقلك أنت، بل سنعتقل هذا الرجل. عليك مساعدتنا لا أن تقف بطريقنا أثناء تأديتنا لواجبنا."

"إنه صديقي وقضيته قضيتي" قال إدريس.

"بكل احترام، حضرة المستشار أقول لك إنه قد تكون لك قضيتك الخاصة في يوم قريب منا" أجاب النقيب. "هذا الرجل ماكوردو كان مسلحاً قبل مجيئه إلى هنا وهو لا يزال مسلحاً. رافقوه ريثما أجرده من سلاحه."

"خذ مسدسي" قال ماكوردو ببرود: "أيها النقيب، أعرف لو أنني كنت وإياك وجهاً لوجه بمفردنا لما تمكنت من اعتقالي بهذه السهولة."

"أين مذكرة التوقيف؟" سأل ميغيتي: "يا رب! هذه بلاد ديموقراطية حرة. إنه غضب عارم وستسمع المزيد عنه. أؤكد لك ذلك."

"لم نعتقله وحدك وسنقوم نحن بواجبنا حضرة المستشار."

"ما هي التهمة الموجهة إلي؟" سأل ماكوردو

"اشتراكك بعملية الضرب التي تعرض إليها الناشر ستانفور في مكتب الجريدة."

"إذا كان هذا كل ما تملكونه ضده" صاح ميغيتي ضاحكاً: "فستوفرون على أنفسكم العناء بتركهم القضية منذ الآن. هذا الرجل كان معي في صالوني يلعب الورق حتى منتصف الليل، وعندي العشرات من الشهود ليؤكدوا ذلك."

"هذا هو شأنك، وأظن أن بإمكانك تدبير ذلك في المحكمة التي ستعقد غداً. بهذه الأثناء، هيا، ماكوردو، وتقدم بهدوء إلى الباب إلا إذا أردت أن يخترق الرصاص رأسك. وأنت أبق مكانك سيد ميغيتي لأني لن أحتمل أي مقاومة لي أثناء تأديتي لواجبي!"

كان النقيب مصمماً على كلماته وملامحه تعكس ذلك وبهذا فقد فهم ميغيتي وماكوردو ما طلبه منهم. وتمكن الأول من همس ببعض الكلمات للسجين قبل أن يغادر الغرفة.

"ماذا عن—" سأل ميغيتي ورفع إصبعه إشارة للآلة وربيع العمة.

"لا تخف" همس ماكوردو الذي كان يخفيها بمكان آمن تحت أرض الغرفة.

"سنودعك الآن" قال الرئيس وهو يصافح الشاب: "سترى المحامي زيني وسنهتم بقضية الدفاع عنك بنفسي. أعدك أنهم لن يحتجزوك لفترة طويلة."

"لن أراهن على ذلك لو كنت مكانك" رد نقيب الشرطة: "احرسوا السجين أيها العسكر وأطلقوا النار عليه فوراً إن حاول القيام بأية ألاعيب. سأفتش المنزل قبل أن أغادر."

قام مورتن بذلك لكنه لم يجد أثراً للآلة الطابعة. حين مرّ رافق ورجاله ماكوردو إلى المركز. الظلام كان قد حل والشوارع شبه مهجورة ولكن بعض المارة تبعوا الموكب وهم يشيرون إلى السجين.

"اقتلوا السكوربعين!" كانوا يصيحون: "اشنقوه!"

سلّم السجين لرئيس المركز الذي أدخله الزنزانة حيث وجد دالمون وثلاثة مجرمين آخرين من ليلة سارحة دافئة. لكن حتى هنا في عقر دار القانون كانت يد الأحرار واصلة. فقبل منتصف الليل جاءهم أحد السجانين بصرة كانت تحتوي على زجاجة مشروب وكؤوس وورق لعب. فقضوا بقية ليلتهم باللعب والشرب دون الاكتراث بالمحكمة التي

كانت بانتظارهم صبيحة اليوم التالي. المحكمة كانت مهزلة فعلاً. فالشهود ورجال الصحافة لم يستطيعوا تأكيد هوية المهاجمين لأن الظلام كان مسيطراً والإضاءة ضعيفة وحتى ستاغر نفسه اعترف أن الهجوم حصل بغتة بشكل مفاجئ جداً لدرجة أنه يذكر فقط أن من ضربه أولاً كان رجل بشارب كث. محامي لمكي الذي وكله ميغيتي استطاع دحض كل تأكيدات الشهود وأيضاً تأكيد المستشار والعديد من رجال السياسة المعروفين أن المتهمين كانوا داخل قاعة منزل الاتحاد يلعبون الورق فأفرج القاضي وهيئة المحكمة عن المتهمين بشبه اعتذار.

معظم الوجوه كانت مبتسمة وفرحة، وجوه يعرفها ماكوردو بعد أن رآها في اجتماع الجمعة البارحة لكن وجوه بقية هيئة المحكمة كانت متجهمة وعابسة. وقد نوه أحد أفراد هذه الهيئة بما كان داخل معظمهم حين تمتم والمتهمون يمرون من أمامه نحو الحرية.

"أيها القتلة، لم ننتهي منكم بعد!"

الفصل الخامس

أشد الساعات ظلمة

لا شيء أكثر من اعتقال ماكوردو بدأت أيامه التي ضمّ بها الجمعية كان سيزيد من شعبية الشاب بين أفراد هذه الجمعية الخاصة. فبالرغم من أن شهرته كانت قد عُرفت منذ اليوم الأول كونه رابط الجأش، قوي الشكيمة، غضنفر يتحمل الآلام. تحدث لبق، ذكي وحاد الطبع. جميع الرؤساء أدركوا أنهم أمام صنف نادر من القوة والبأس. "إنه الرجل المناسب للعمل المخيف" قالوا لبعضهم البعض وأدركوا أنهم سيستعملونه بعض الأوقات وليس الأعمال العادية الصغيرة التي يستطيع القيام بها أي فرد آخر من أفراد المنظمة. الآخرون مثل بالدوين كرهوا صعود هذا الغريب السريع على سلالم النجاح وحسدوه، لكنهم أبقوا مشاعرهم هذه بداخلهم لأنه كان مستعداً للقتال بلحظة كاستعداده للابتسام بلحظة.

لكن إذا كان قد ربح إعجاب وحب زملائه فهو قد خسر الكثير بالمقابل. شافتر العجوز أوضح له أنه لا يريده بعد الآن ومنعه من المجيء إلى منزل لرؤية إيتي. كانت تحبه بعمق ولم تشأ التخلي عنه بهذه السهولة. وأحد الأيام بعد ليلة طويلة من السهد للتفكير بحبيبها الذي كان يغرق في حيرة الإجرام والقسوة المتمثلة بالجمعية وكل ما يرتبط بها قررت إيتي الذهاب لرؤيته – وربما للمرة الأخيرة – هذا ما كان ماكوردو يرجوها أن تفعل دوماً. وهكذا ذهبت تعدو إليه ودخلت

غرفته دون أن تصدر أي صوت. كان يجلس على المكتب وظهره لها وكان يكتب رسالة ما. شابا نشيطا والغيرة أكلت قلبها فهي كانت في التاسعة عشر فقط وغارقة في الحب فخمنت أنه يكتب رسالة لامرأة أخرى. مشت على رؤوس أصابعها ولمست كتفه برفق.

إذا كانت تريد أن تدهشه، فقد فعلت. لكنها أصيبت بالذهول هي نفسها. فلحظة استدار جاك كالنمر وأطبق بيده حنجرتها وعيونه تبرق بشدة وبيده الأخرى مزق وضغط على الورقة التي كان يكتبها. للحظة حدق مستغربا ثم الدهشة والغبطة حلتا مكان الوحشية ولانت ملامحه. لكن وحشيته السابقة جعلتها تذهل وتنكمش على نفسها برعب لم تشعر به من قبل في حياتها الطرية الهادئة.

"هذا أنت!" قال بدهشة. "ولقد أتيت إلي يا حياة قلبي وروحي، وأنا كنت على وشك أن أخنقك! تعالي يا حبيبتي" مد لها ذراعيه: "دعيني أعوضك عن ذلك."

لكنها لم تكن قد استعادت وعيها بعد رؤيتها لنظرة الخوف المذنب التي رأتها داخل عيونه. كل غرائزها الأنثوية دلتها أن ليس الخوف وحده هو ما جعله يذهل. لمست هنا مكان الحب والخوف.

"ما الذي حل بك، جاك؟" صاحت: "لماذا ارتعبت بشدة مني؟ آه جاك، لو كان ضميرك مرتاحاً لما كنت نظرت إلي بتلك الطريقة!"

"بالطبع كنت أفكر بشيء آخر، وحين دخلت خلفي بتلك القدمين الخفيفتين خفت."

"لا، لا، كان الأمر أكثر من هذا" ثم تملكها شك مفاجئ: "دعني أرى تلك الرسالة التي كنت تكتبها."

"أوه، إيفي، لا أستطيع أن أفعل ذلك."

تأكدت شكوكها.

"إنها لامرأة أخرى" صاحت: "أعرف ذلك. وإلا فلماذا تخفيها عني؟ أكانت الرسالة لزوجتك؟ كيف لي أن أعرف أنك لست متزوجاً – أنت، الغريب، الذي لا يعرف أحداً عنه شيئاً؟"

"لست متزوجاً، إيفي. اسمعي، أقسم لك بذلك. أنت المرأة الوحيدة في العالم بالنسبة لي. أقسم بالرب، إيفي، أقسم بالرب على ذلك!"

كانت العاطفة العميقة الصادقة تلون كلماته بوضوح فلم تستطع إلا أن تصدقه.

"لا بأس إذاً" قالت. "لماذا لا تريد أن تريني الرسالة؟"

"سأقول لك يا حبيبتي" قال: "لقد أقسمت أنني لن أدع أي مخلوق يشاهد هذه الرسالة، وأنا لن أخلف بوعدي ولا حتى لك. إنه سر يتعلق بالجمعية وهو بالغ السرية. وقد خفت حين لامست يداك كتفي فجأة لأني اعتقدت أنها قد تكون لمحقق ما."

شعرت أنه يقول الحقيقة. أحاطها بذراعيه وأزال عنها كل مخاوفها وشكوكها.

"اجلسي هنا بجانبي إذاً. إنه عرش غريب لملكة مثلك لكنه أفضل ما بإمكان عشيقك الحميم أن يقدمه. سيصبح لك عرشاً أفضل قريباً يا أسمى الملكات، والآن هل هذا ذلك؟"

"كيف له أن يحدث يا جاك، طالما أعرف أنك مجرم ضمن المجرمين — حين أتوقع في أي لحظة أن تمثل أمام محكمة لارتكابك جريمة ما؟ ماكموردو السكور — هذا ما دعاك به أحد جيراننا البارحة. لقد مزق هذا قلبي.

"بالتأكيد الكلمات القاسية لا تكسر العظام."

"لكنها كانت كلمات صحيحة."

"لا عليك يا حبيبتي، ليس الأمر بالسوء الذي تتصورينه. نحن مجرد رجال مساكين نقوم بأعمالنا بطرقنا الخاصة."

أحاطت إيتي ذراعيها حول رقبة حبيبها.

"جاك تخلَّ عن كل هذا! من أجلي، من أجل الرب، تخلَّ عن هذا! لقد أتيت فقط لأطلب منك ذلك. أوه، جاك — أرجوك! أنا أتوسل إليك! أركع على قدميك. أتوسلك أن تتخلى عن هذا!"

رفعها وعانقها ممسداً شعرها ورأسها متكئ على صدره.

"أنت لا تعلمين يا حبيبتي لا تدركين ما الذي تطلبينه مني. كيف بإمكاني التخلي عن كل شيء فيما يعني خرقاً للوعد الذي قطعته لزملائي والقسم الذي أقسمته لهم بالولاء؟ لو كنت تعرفين حقاً كيف هو الوضع وترينه من منظوري ما طلبت مني هذا مطلقاً. وأيضاً حتى لو رغبت أنا بالتخلي عنهم فهل تظنين أنهم سيتركونني أفعل؟ أنت لا

تصدقين أن الرجال الأحرار سيتخلون عن واحد منهم بكل سهولة وموافقة بعد أن اطلع على أسرارهم؟"

"لقد فكرت بذلك جيداً. وقد خططت له. لقد جمع والدي مبلغاً من المال. إنه كاره لهذا المكان، حيث الرعب الساكن قلوب جميعاً. إنه مستعد للرحيل. سنهرب سوية إلى فيلادلفيا أو نيويورك، حيث سنكون بمأمن منهم."

ضحك ماكوردو.

"للجمعية ذراع طويلة الباع. ألا تعتقدين أنها تمتد من هنا حتى نيويورك أو حتى فيلادلفيا؟"

"حسن، إذاً إلى الغرب أو إلى إنكلترا أو ألمانيا حيث موطن والدي - أي مكان بعيداً عن وادي الخوف هذا"

فكر ماكوردو بالأخ موريس العجوز.

"بالطبع هذه هي المرة الثانية التي أسمع فيها أن الوادي يُلقب بوادي الخوف" قال: "تبدو ظلال متكئة على بعضكم فعلاً"

"إنه يحول كل لحظات حياتنا إلى ظلام دامس. هل تعتقد أن تيد بالدوين قد غفر لنا ولو لحظة؟ لولا أنه يخشاك. فماذا تعتقد أن فرصنا كانت ستكون؟ حين ترى النظرة بعينيه السوداء الجائعة حين ينظر إلي!"

"يا رب! سأعلمه الأدب إذا رأيته ينظر إليك بهذه الطريقة. لكن اسمعي أيتها الصغيرة. لا أستطيع أن أترك هذا المكان. لا أستطيع — افهمي هذا مرة وللأبد. لكن إن تركتني أسير أمري بمفردي فأعدك أنني

وبظرف ستة أشهر من الآن سأستمر خروجاً بكل شرف وموافقة من قبل الجميع."

"لا يوجد أي شرف بهذه المسألة."

"حسناً، حسناً. هكذا تنظرين أنت للأمر. لكن إذا أمضيتي ستة أشهر فقط فسأتدبر أمر مغادرة المكان دون أن أشعر بالعار أو الحرج بالنظر مباشرة بوجوه الآخرين."

ضحكت الفتاة بغبطة.

"ستة أشهر!" صاحت. "هل هذا وعد؟"

"حسناً، قد تكون سبعة أو ثمانية أشهر. لكن بعد سنة على أبعد تقدير سنترك هذا النادي خلفنا."

كان هذا أقصى ما استطاعت إيقي الحصول عليه. لكنه كان شيئاً كافياً. رأت بصيصاً أمل ينير مستقبلها. عادت إلى منزل والدها والفرح يرقص داخل قلبها.

أدرك ماكوردو بعد فترة قصيرة على انخراطه بالمنظمة أنها لم تكن بالحجم الذي تصوره، بل أنها كانت تحتوي المزيد والمزيد من الرؤساء والعناصر. رؤساء حتى ميغيتي نفسه يخشاهم ويأتمر بأوامرهم مثل الرئيس الأول الذي رآه ماكوردو مرة واحدة ولاحظ عليه ملامح الدهاء والشر. وقد أمر هذا الرئيس ميغيتي بتأمين إقامة اثنين من أتباعه الذين كانا يقومان بمهمة في فيرميس وضواحيها. كانت السرية التامة هي الشرط الأساسي لهذه المهمة.

طلب ميغيتي من سكابلان ومكوردو تأمين سكن الغريبين عندهم لبعض الوقت. أحد الرجلين يدعى لوتر كان كبير السن قوي البنية عظيم يوحي كأنه من نساك والآخر أندروز كان صغير السن، مراهق، يبدو وكأنه آتٍ للنزهة ويهوى الاستمتاع بكل لحظة من وقته. كان الرجلان يتحدثان عن المهمات السابقة التي قاما بها لصالح المنظمة. لوتر كان قد ارتكب 12 عملية اغتيال وأندروز ثلاثة كي أحرز رفاقهم في المدن بفخر وكبرياء كل أعضاء جمعية الإجراءات هذه. لكنهما كانا متكتمين حول طبيعة مهمتهما الحالية.

"لكن احذرونا" قال لوتر: "أنا لا أشرب الخمر وأنا لا أتفوه بأكثر مما يجب، لا تعتبر هذه غطرسة، لكنها الأوامر التي يجب أن أطيعها."

"طبعاً جميعنا بنفس الموقع" قال سكابلان والأربعة يجلسون حول طاولة العشاء.

"نستطيع التحدث قدر ما نشاء بعدة أشياء مهمة لكن في ذلك علينا الاحتفاظ بالسرية التامة."

"هناك بعض الأشخاص هنا يستحقون القتل دون شك" قال مكوردو بتصميم: "لا أظن أنكم تسعون وراء جاك نوكس من أبيوهيل. أنا أتطلع بشوق لأراه بلا حراك."

"لا، ليس هو المقصود."

"ولا هيرمان ستراوس؟"

"لا، ليس هو أيضاً."

"حسناً، إذا لم ترغبا بإطلاعنا على الأسماء فلا يحق لي إرغامكما على ذلك، لكنني سأسعى لمعرفة هذا."

ابتسم لولو وهز رأسه.

لم يكن يُستدرج بالكلام. بالرغم من تكتم رفيقيه إلا أن سكاتلان وماكوردو قررا مشاهدة ما أسموه "المرح". ونهضا حين سمعهما ماكوردو يتسللان تبعهما. الفجر لم يكن قد حل بعد وعلى ضوء مصابيح الشارع استطاع المطاردان رؤية الزائرين السائرين بطريقهما.

كان القمر قد بدأ يظهر ومعه أخذ عمال المنجم يتجهون نحو منجمهم. ظل لولو ورفيقه يمشيان تجاه إحدى التلال وماكوردو وسكاتلان خلفهما إلى أن وصلوا المنجم. كان أمامه حوالي مئة من العمال الذين كانوا يحركون أيديهم لشدة البرد وهم ينتظرون رفع المهندس للعربات المحولة إلى المنجم وبالتالي لبدء يوم عملهم. وصل رئيس العمال وكان على وشك إعطاء الإشارة برفع العربات حين اقترب منه نمرور بسرعة.

"ما الأمر؟" سأل رئيس العمال: "ماذا هناك؟"

لم يتلق أي جواب بل أطلق عليه نمرور رصاصتين اخترقتا أمعاءه. أمسك الرجل مكان الجرح وكان يترنح حين أكمل لولو عليه بإطلاقه الرصاصة على رأسه. المصاب كان يحتضر والعمال تجمدوا بمكانهم ينظرون كأنهم موتى، وحده المهندس صرخ بغضب وهرع نحو المجرمين إلا أنه سقط أمام أقدامهم مباشرة برصاصتين أصابتا قلبه. علا الصراخ بين العمال وأخذوا يقتربون من القتلة لكن هؤلاء أفرغوا ما تبقى من رصاص فوق رؤوس العمال الذين هرعوا بخوف متعثرين، وحين تابع تشجعهم

اعتقد كل المجرمين قد تلاشى بضباب كثيف لدى أحمص المكان بعد نجاح عملية تهريب الشركة هذه. وبالطبع أجبرها على دفع الخوة لهم. ماكوردو وصديقه تايمس كانا يراقبان ما حدث من تلة قريبة عندما أدركا دورهما. سكانلان كان مرعوباً لأن هذه هي المرة الأولى التي شاهد فيها جريمة حقيقية تحدث أمام عينيه. جريمة تمت أمام مئة شاهد لكن أحداً منهم لن يتعرف على القتلة بسبب الضباب. أما ماكوردو فقد كان صامتاً وازدرى بداخله ضعف صديقه.

"إنها الحرب" قال: "الحرب بيننا وبينهم وعلينا توجيه الصفعات لهم كلما استطعنا."

أخيراً جاء اليوم الذي استدعى به الرئيس ميجيني ماكوردو إلى نفس الغرفة الخشبية الصغيرة التي التقاه بها للمرة الأولى.

"اسمع الآن يا بني" قال: "عندي المهمة التي تليق بك أخيراً. ستتمكن القيام بها لوحدك."

"أشعر بالفخر لسماعي هذا." أجاب ماكوردو.

"تستطيع اصطحاب رجلين معك - مندرز ورايلي. لقد أخبرتهم بهذا. لن تسير أمورنا بهذه المقاطعة إلا بعد القضاء على تشيستر ويلكوكس. ستنال الشكر من كل فرد في الجمعية بمكانها إذا استطعت النيل منه."

"سأبذل جهدي، على كل حال، من هو، وأين سأجده؟"

أخذ ميجيني يرسم خريطة على ورقة من دفتر ملاحظاته.

"إنه رئيس العمال في شركة ديك. إنه رجل طيب. كان رقيباً في الجيش سابقاً وجسمه ممتلئ بالندبات وكسيت صدره بالنياشين. حارب المرتزقة الذين معه، لكنه لم ينجح وجيم كاروي خسر حياته في إحدى هاتين الحربين. الآن سنعهد لك أنت بهذه المهمة. هنا يقع المنزل، منعزلاً بمفرده على طريق دايك. كما تراه هنا على هذه الخريطة. هذا ليس جيداً جداً رغم ذلك. فالرجل مسلح ويطلق بسرعة وإجادة في التصويب دون أن يطرح أي سؤال. لكن في حين – لا بأس، يكون مع زوجته وأطفاله الثلاثة ومدبرة المنزل. لا تستطيع الاختيار. الجميع أو لا أحد. إذ تمكنت من وضع صندوق من البارود أمام الباب الرئيسي وأشعلته–"

"ما الذي فعله الرجل؟"

"ألم أقل لك أنه قد أردى جيم كاروي؟"

"ولماذا أرداه؟"

"ما علاقة هذا بحق السماء بك؟ كاروي كان قريب مرابط تلك الآنسة وقد أرداه الرجل. هذا يكفي لك ولي. يجب أن تقوم بما طلب منك."

"هناك مربية والأطفال. هل تجهز عليهم أيضاً؟"

"يجب عليك أن تفعل وإلا فكيف ستقضي عليه؟"

"يبدو هذا غير عادل. فما هو الذنب الذي ارتكبوه هم؟"

"ما نوع هذا الكلام؟ هل تريد الانسحاب؟"

"اهدأ، حضرة المستشار، اهدأ! ما الذي سبق وقلته أو فعلته حتى تعتقد أنني أريد الانسحاب وعدم الاستجابة لأمر يطلبه مني رئيس مركزي؟ إذا كان القرار صحيحاً أم خاطئاً فأنت من يقرر."

"ستقوم بالعمل إذاً؟"

"بالطبع سأفعل."

"متى؟"

"أمهلني يوماً أو اثنين حتى أرى المنزل وأرتب خططي. بعدها—"

"جيد جداً" قال مبعوثي مصافحاً بشدة: "سأترك لك تحديد الوقت. سيكون يوماً عظيماً حين نعرف بالخبر السعيد. عملك سيكون الضربة القاصمة والأخيرة التي ستجعلهم جميعاً يركعون تحت أقدامنا."

فكر ماكوردو ملياً وبعمق بالمهمة التي وصلت إليه حالاً. صباح اليوم التالي ذهب وعاين المنزل من جميع جهاته. وفي اليوم الذي تلاه قابل ماندرز ورايلي واتفق معهم على الموعد. وهكذا، في الليل التالي عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل انطلق الثلاثة بأسلحتهم وكيس من البارود نحو الهدف. كان الظلام حالكاً والرياح تعوي وتصفر. وصلوا إلى المكان بحذر وصمت وألصق ماكوردو أذنه بباب المنزل الخشبي فلم يسمع أي صوت. وضع كيس البارود هناك بعد أن ترك خطاً منه يصل إلى مكان صديقيه. خطوات ثم أشعل الفتيل وركض مع الاثنين إلى وراء تلة قريبة ووصل مسامعهم صوت الانفجار القوي وتساقط جدران المنزل وسقفه. عملهم قد نجح لكنهم عرفوا بعد ذلك أن

تشيستر ويلكوكس قد غادر وعائلته المدن في اليوم السابق فقط لسعيد العملية. وسكنوا في مكان أكثر أمناً حيث الحراسة مؤمنة عليهم ليلاً نهاراً.

"اتركوه لي" قال ماكوردو: "إنه لي، سأنال منه حتى لو انتظرته عاماً بأكمله."

تعالى الشكر والثقة بين أفراد المنظمة لسماعهم كلمات الشاب وبهذا انتهت هذه المسألة. فبعد عدة أسابيع تناقلت الصحف خبر مقتل تشيستر ويلكوكس من قبل رجل مجهول. كان هذا سراً معروفاً لدى المنظمة، وأدرك الجميع أن ماكوردو قد نجح بمهمته.

هكذا كانت أساليب جمعية الرجال الأحرار، وهكذا كانت أعمال السكورورز التي زرعت الخوف والرعب أنحاء المقاطعة الخصبة الواسعة.

لماذا أتابع سرد سلسلة الجرائم العديدة هذه؟ لقد أعطيتكم ما يكفي لتستدلوا على أساليب وطرق هذه المنظمة الدموية التي أطبقت يدها حول رقاب كل سكان الوادي، نيرها المرعب الرهيب الذي سحق كل معارضة أو حتى مواجهة لأي فرد من أفرادها في أي وقت أو أي مكان. ظلّت غيمة الرعب جاثمة على الوادي ولم تكن أشد قتامة من أوائل صيف العام 1875.

الفصل السادس

الخطر

علا شأن ماكوردو بين أفراد المنظمة وأصبح نائباً للرئيس وأدرك الجميع أنه سيخلف ميبيتي بالرئاسة في يوم من الأيام. أصبح بالغ الأهمية لرفاقه وكانوا لا يتحركون إلا وفق مشورته ومساعدته. كما ازدادت شهرته داخل المنظمة. كما ازداد حقد سكان الوادي عليه وكانوا ينعتونه بالألقاب كلما مر بالطريق. بالرغم من رغبتهم فإن السكان كانوا يكاتفون ضد الطغاة خائفين بما من خوف وتهديد. الشائعات كانت تقول أن اجتماعات سرية كانت تجري في مكتب "هيرالد" ويوزع حملة السلاح على المجتمعين. لكن ميبيتي ورجاله لم يكترثوا لهذه التقارير. فهم كانوا الأكثر عدداً، الأقوى، والأكثر تسلحاً. معارضوهم كانوا مبعثرين وبلا قوة. كل شيء سينتهي، كما حدث لعدة مرات في الماضي، بحديث بلا معنى أو حتى اعتقالات غير خطيرة. هذا ما قاله ميبيتي، ماكوردو وكل الأشداء داخل المنظمة.

كان يوم سبت في أيار. يوم السبت كان دوماً ليل المنظمة وماكوردو كان على وشك ترك منزله لحضور تلك الليلة، حين أتى موريس الأخ الأضعف في الجمعية لرؤيته. جبينه كانت متغضنة من هم ووجهه الطيب كان قلقاً.

"هل أستطيع التحدث معك بحرية، سيد ماكوردو؟"

"بالطبع."

"أنا لا أنسى أني قد بعثت بك بكموت قبلي مرة في سانتو
وأنت قد حفظت السر بيني وبينك فقط، مع أن الرئيس نفسه حضر إليك وسألك عن ذلك."

"ماذا كان بإمكاني أن أفعل غير هذا وأنت قد وضعت ثقتك بي؟ لم يكن معنى ذلك أني أوافق على ما فعلت."

"أعرف ذلك جيداً. لكنك الوحيد الذي أستطيع التكلم معه دون أن أتعرض للخطر والموت. عندي سر هنا—" وضع يده على صدره: "وهو يحرق حياتي ويقتلني ببطء. أتمنى لو أنه وصل لأي شخص آخر منكم غيري أنا. إذا قلته فذلك سيعني الجريمة، بالطبع. إذا بقيت صامتاً فذلك قد يعني نهايتنا جميعاً. فليساعدني الرب، كي أكاد أصاب بالجنون من جراء هذا!"

نظر ماكوردو إلى الرجل بدهشة. كان يرتعش كلياً. صب له بعض الشراب وناوله الكأس. "هذا علاج لأمثالك" قال. "والآن أخبرني ما هو هذا السر؟"

جرع موريس الكأس وبدا بعض اللون على وجهه الشديد الشحوب. "أستطيع إطلاعك عليه بكلمة واحدة" قال: "هناك مخبر يرصدنا."

حدق ماكوردو به بذهول. "ماذا يا رجل، هل جننت!" صاح: "أليس المكان مليئاً برجال الشرطة والمخبرين وما هو سوء الذي سيفعلوه لنا؟"

"لا، لا. إنه ليس رجلاً من هذه المقاطعة، كما قلت، نحن نعرفهم هنا، وهم لا يستطيعون أن يؤذونا. لكن هل سمعت عن البيكرتون*؟"

"أظن أنني قرأت عن بعض الأشخاص بهذا الاسم."

"جيد. تستطيع أن تأخذ ذلك مني، ليس أمامك أي فرصة حين يكونون هم بالأثر. إنه ليس شأن حكومي عادي. إنه عمل دقيق ومميت يصل إلى نتائجه بصمت ثم ينال من يلاحقه إما بالخسارة أو بالقتل. إذا كان أحد رجال البيكرتون متورطاً فعلاً بهذه القضية فسينقض علينا جميعاً."

"يجب أن نقتله."

"آه، إنها الفكرة الأولى التي خطرت ببالك! إذاً فسينتشر الأمر في المركز. ألم أقل لك أن الأمر سيؤدي إلى جريمة؟"

"بالطبع، وما هي الجريمة؟ أليست عادية جداً بهذه المقاطعة؟"

"إنها كذلك فعلاً لكنه ليس عادياً لي أن أشير بنفسي للرجل الذي سيتم قتله. لن أستريح أبداً بعد ذلك. لكن رقابنا هي التي على المحك. بحق الرب ماذا يجب أن نفعل؟" قال العجوز وهو يكاد ينتحب.

كلماته كانت قد أثرت بماكموردو كثيراً. كان من السهل معرفة أنه يشارك الجميع رأيهم بأن الخطر المريع يحدق بهم جميعاً. فأمسك بكتفي موريس وهزه بشدة.

"إسمع يا رجل" صاح محدثه: "لن تكسب شيئاً بجلوسك وحيداً هنا هكذا كالزوجة الثكلى. لنعرف الحقائق. من هو هذا الرجل؟ أين هو؟ كيف عرفت بأمره؟ لماذا أتيت إلي أنا بالذات؟"

"أتيت إليك لأنك الرجل الوحيد الذي سيصدقني. أخبرتك أنه كان لي متجراً في الشرق قبل مجيئي إلى هنا. تركت أصدقاء جيدين خلفي، وأحدهم يعمل في البريد والبرق، إنها الرسالة التي وصلتني منه البارحة. هذا القسم من مقدمة الرسالة. تستطيع قراءته بنفسك."

هذا كان ما قرأه ماكموردو:

"كيف حال السكورر في منطقتك؟ نقرأ الكثير عنهم في الصحف. بيني وبينك لقد توقعت سماع المزيد من الأخبار منك ذات يوم من الزمن. خمس شركات ضخمة لخطوط سكة الحديد قد تحركت بالهمة بهذا الشأن. إنهم يقصدون ما يفعلون، وتستطيع أن تراهن أنهم سيصلون إلى هدفهم! لقد باشروا بالأمر بعمق. البينكرتون قد استلموا القضية وفقاً لأوامر الشركات، وأفضل رجل في سلكهم، بيردي إدواردز يقوم بالعملية. وبهذا فهم سيقضون على تلك الجماعة بالتأكيد."

"والآن إقرأ نهاية الرسالة" قال العجوز.

"بالطبع، كل ما ذكرته لك قد عرفته أثناء عملي ولهذا فالأمر سري بيني وبينك."

جلس ماكموردو بصمت لبعض الوقت والرسالة بين يديه المرتجفتين. الضباب قد زال لحظة وبانت أمامه حافة الهاوية.

"هل يعرف أي شخص آخر حول هذا؟" سأل.

"لم أطلع أي شخص عليها سواك."

"لكن هل الرجل صديقك هل عنده أشخاص آخرين قد يرغب بمراسلتهم؟"

"حسناً، أستطيع القول أنه يعرف واحداً أو اثنين آخرين."

"من جمعيتنا؟"

"أجل.

"كنت أسأل لأنه قد يكون أعطى وصفاً لهذا الرجل بيردي إدوردز في رسالته الأخرى وهكذا فسنتمكن من اقتفاء أثر هذا الأخير."

"هذا ممكن. لكني لا أظن أنه يعرفه. لقد اطلعني فقط على الأحجار التي عرفها أثناء عمله في مكتب البريد. كيف له أن يعرف رجل البيكرتون هنا؟"

ظهر الذهول على ماكوردو.

"يا رب!" صاح: منذ عرفته. كم كنت أحمقاً بعدم إدراكي لذلك من قبل. يا إلهي! إننا محظوظون! سنتدبر أمره قبل أن تتمكن من القيام بأي خطوة. إسمع موريس. هل ستترك كل هذا الأمر بين يدي؟"

"بالطبع، إذا حررتني منه بدورك."

"سأفعل ذلك. تستطيع التراجع ومراقبة ما يحدث فقط دون أن يكون لك أي علاقة بها. إسمك حتى لن يذكر. سآخذ على عاتقي كل شيء وكأن هذه الرسالة قد أرسلت لي أنا وليس لك. هل يرضيك هذا؟"

"هذا هو كل ما أطلب."

"إذاً أبق الأمر عند هذا الحد ولا تفتح فمك بشيء. الآن سأذهب إلى المركز وسأجعل هذه البيكرتون جزءاً من التاريخ."

"أنت لن تقتل هذا الرجل؟"

"كلا كان ما نعرفه قليلاً. أخ موريس، كلما كان صغيراً أكثر راحة وستتمكن من النوم. لا تطرح الأسئلة ودع الأمور تسوي نفسها بنفسها. أنا من يمسك بزمام الأمور الآن."

هز موريس رأسه بحزن وعذر وهو يقول: "أشعر أن دماء الرجل على يداي."

"الدفاع عن النفس لا يعد جريمة على كل حال" قال ماكوردو يبتسم: "إنما هو واجب حق. أظن أن هذا الرجل سيمضي عيشاً جميعاً إذ ترك على هواه بهذا الوادي. ويجب عليك، أخ موريس، أن تصبح كرئيس للجمعية لأنك تقدر فعلاً ما أصبحت عليه."

بعد رحيل العجوز بدأ التفكير العميق على ماكوردو وأدرك أن الخطر الذي يواجههم حقيقي ومصيري. الشركات كلها توحدت للقضاء على السكورر واستخدموا لهذا منظمة حكومية بالغة الخطورة. أخذ ماكوردو يحرق وينسف كل الصحف والدلائل التي قد تشير إليه قبل أن يغادر المكان. بعد ذلك أطلق تنهيدة ارتياح صوتية فقد شعر أنه صار بأمان. لكن الخطر كان لا يزال يضغط عليه لأنه قبل ذهابه إلى مركز الجمعية عرج على منزل شفتر. العجوز لم يكن بالمنزل، وابنته نزلت إليه فوراً حين رأته من نافذتها.

م ترى على وجه حبيبها ذلك التلهف والشوق بل رأت الخطر.
"لقد حدث شيء ما" صحت: "آه، جاك، أنت في خطر؟"
"بالتأكيد الأمر ليس بهذا السوء يا حبيبتي. لكن قد يكون من الحكمة اليوم بخطوتنا الأولى قبل أن يزداد الأمر خطورة."
"تقوم بخطوتك؟"
"لقد وعدتك بالسابق أنني سأغادر هذا المكان يوماً ما. أظن أن هذا اليوم قد حان. لقد وصلتني بعض الأخبار هذه الليلة – أخبار سيئة – وأرى المشاكل قادمة.
"الشرطة؟"
"البيكرتون. لكن بالطبع، لن تعرفي ما معنى ذلك يا حبيبتي، ولا ما قد يعني ذلك لأمثالي. أنا متورط بعمق بهذه المسألة، وقد أضطر للهرب منها بسرعة. قلت أنك ستأتين معي إذا رحلت."
"أوه، جاك، هذا سيعني إنقاذك!"
"أنا رجل شريف ببعض الأمور، إيتي، لن أؤذي شعرة من رأسك الحبيب مقابل أي شيء في العالم بأكمله، ولن أنزلك من عرشك الذهبي الذي أضعك به فوق السحاب محاولات مقابل. هل تثقين بي؟"
وضعت يدها داخل يديه دون أي كلمة.
"حسناً، إذاً، استمعي جيداً لما سأقوله لك وعدي ذلك بالحرف، لأن هذا هو السبيل الوحيد لنجاتنا. ستحدث الكثير من الأشياء في هذا الوادي. أشعر بذلك بداخلي. سيضطر الكثير منا للاهتمام بأنفسهم

فقط. أنا واحد من أولئك وإذا اضطررت للهرب بالليل أو بالنهار فأنت ستأتين معي"

"سألحق بك، جاك."

"لا، لا، ستأتين معي. إذا أغلق هذا الوادي علي ولم أعد أستطيع العودة إليه، فكيف سأتركك خلفي. وقد أضطر للاختباء من الشرطة ولن أكون قادراً على إرسال حتى رسالة واحدة. يجب أن تأتي معي. أعرف امرأة طيبة من المكان الذي أتيت منه. سأتركك عندها لحين نتمكن من الزواج. هل ستأتين؟"

"أجل، جاك. سآتي."

"فليباركك الرب على ثقتك بي! سأكون حقيراً وملعوناً إذا خنت ثقتك بي هذه. والآن انتبهي، متى ما أرسلت لك بكلمة واحدة وحين تصلك عليك ترك كل شيء والحضور إلى قاعة الانتظار في المنزل وانتظار قدومي إليك."

"في الليل أو في النهار، سآتي فور سماعي للكلمة، جاك."

بعد أن رتب حججه قليلاً لتدبيره خطة الهرب ذهب إلى المركز.

أعطى الكلمات السرية للعبور ووصل إلى قاعة الاجتماع حيث كان الرؤساء والأعضاء موجودين. حيا الجميع ببهجة وحزم.

"نحن مسرورون بوصولك يا أخي!" قال الرئيس: "تفضل بالجلوس."

لم يجلس ماكوردو بل جذب انتباه الجميع وصمتهم لملامحه المتصلبة الساكنة.

"حضرة رئيس المجلس" قال، "أطلب قانون الطوارئ"

"الأخ ماكوردو يطالب بقانون الطوارئ" قال رئيس المجلس: "وبهذا ووفقاً لقوانين الجمعية فسنناقش ما يريد مناقشته قبل أي قضية."

تناول ماكوردو الرسالة من جيبه.

"حضرة رئيس المجلس، أيها الأخوة" قال: "أنا نذير أخبار الشؤم هذه الليلة لكن من حسن الحظ أن أمامنا الوقت للمناقشة وتداول هذه الأخبار قبل سقوط السقف المتصدع فوق رؤوسنا والقضاء علينا. لقد وصلتني الأنباء أن أهم وأكبر مؤسسة حكومية بكل البلاد هذه قد أخذت على عاتقها مهمة القضاء علينا من جذورنا، وأنه بهذا الوقت يوجد تحري من البينكرتون، اسمه بيردي إدواردز، في الوادي هذا وهو يجمع الدلائل التي ستضع حبل المشنقة حول رقبة العديد منا والتي سترسل كل رجل موجود هنا إلى الزنزانة الأبدية. هذه هي المسألة التي أريد مناقشتها والتي طلبت لأجلها قانون الطوارئ."

ساد الصمت القاتل على الجميع. قطعه أحد المستشارين.

"ما هو دليلك على ذلك أخ ماكوردو؟" سأل.

"إنها هذه الرسالة التي وصلت إلى يدي" قال وقرأ على مسمع الجميع: "أنا مرتبط بوعد شرف بعدم إعطاء أي إيضاحات أخرى حول هذه الرسالة، لكني أؤكد لكم أنها لا تحتوي على أي معلومات أخرى مهمة. أضع القضية بين أيديكم كما وصلت إلي."

"دعني أتولى حضرة المستشار" قال أحد الرؤساء الأكبر سناً.
"إنني قد سمعت عن بيردي إدواردز هذا، وأنه أفضل المتحرين بالسكرتون."

"هل يعرفه أحد؟" سأل ميغيني.

"أجل" قال ماكوردو: "أنا أعرفه."

سمعت تمتمات الذهول بين الرجال.

"أظن أننا نملكه بين أيدينا" تابع ماكوردو مبتسماً: "إذا تحرك بهدوء وحكمة نستطيع الانتهاء من هذا بهدوء واختصار. إذا خطبت ثقتكم ومساعدتكم فلن تخشوا أي شيء."

"ما الذي نخشى منه على كل حال؟ كيف يمكنه أن يضر شؤوننا؟"

"باستطاعتك قول هذا حضرة المستشار لو أن جميع من يداخل هذه اللعبة كان قوياً وصلباً مثلك. هذا الرجل لديه ملايين المستمدة من قبل الرأسماليين بين يديه. ألا تظن أن الأخوة الأضعف بجمعيتنا قد يبيعون أسرارنا مقابل المال؟ هذا إذا لم يكونوا قد فعلوا. سيصل إلى أسرارنا .. وهناك طريقة واحدة لمنعه من ذلك." قال ماكوردو.

"ألا يغادر الوادي حياً" قال بالدوين.

طأطأ ماكوردو.

"جيد لك، أخ بالدوين" قال: "بيني وبينك الكثير من الاختلافات لكنك تفوهت بالكلمة الصحيحة هذه الليلة."

"أين هو إذاً؟ كيف سنعرفه؟"

"حضرة رئيس السجل" قال ماكوردو بلهفة: "سأقول لك أن هذه المسألة بالغة الخطورة ومصيرية بالنسبة لنا حتى نناقشها بالجميع ممنوح لهم. أنا لا أشك بأحد من إخواني أبداً، لكن مجرد كلمة واحدة تصل إلى مسامع ذلك الرجل فسنخسر كل فرصة لنا بالقضاء عليه. أقترح على الجمعية اختيار مجموعة ثقة. حضرة المستشار - أنت بنفسك إذ كان لي الحق بالاختيار، والأخ بالدوين هنا وخمسة آخرون، حيث سنتحدث بحرية حول كل ما أعرف وكل ما أنصح به."

تبنت الجمعية هذا الاقتراح فوراً واختيرت المجموعة أو اللجنة الخاصة، التي كانت تتكون من المستشار، بالدوين، السكرتير هراوي، تايغر كورماك، كارتر رئيس الصندوق، والأخوة ويلابي الشديدي البطش.

انفض الاجتماع العام بسرعة وعاد الرجال الأحرار إلى منازلهم وعلامة الخوف قد زحفت فوقهم أخيراً وشعروا بالرعب من إطلاق ح القانون عليهم.

"والآن ماكوردو!" قال ميغينتي بعد بقاء اللجنة وحدها داخل القاعة.

"لقد قلت إنني أعرف من بيردي إدواردز" شرح ماكوردو: "لا داعي لإخباركم أنه لا يتوجد في نوادي هذا الاسم إنه رجل جريء، هذا ما أراهن عليه، لكنه ليس غبياً أو متهوراً. إنه هنا تحت اسم ستيف ويلسون وهو يسكن في هوبسون."

"كيف تعرف هذا؟"

"لأني تحدثت معه. لم أفكر بالأمر في ذلك الحين، وما كنت لأفكر بذلك مطلقاً لولا هذه الرسالة. لكني متأكد أنه رجل مقصود. قابلته مساء الأربعاء الماضي. قال إنه من الصحافة وإنه يريد أن يعرف ما يستطيعه حول السكورر وحول "موجة الغضب" كي ينشرها حتى يرسل بتقريره لصحيفة "نيويورك". صدقته حينها وطرح عليّ كل أنواع الأسئلة الممكنة مدعياً بأن المعلومات ستُرسل إلى صحيفته. تعرفون أنني ما كنت لأتفوه بأي كلمة خاطئة أو زائدة.

"سأدفع لك، وسأدفع مبلغاً جيداً جداً" قال حينها: "لقد عرفت بعض الأشياء التي تدور على رصيف الميناء." قلت ما اعتقدت أنه يسر بسماعه، وأعطاني هو عشرون دولاراً مقابل معلوماتي. "سأعطيك عشرة أضعاف هذا المبلغ" قال: "إذا أتيت لي بالمعلومات التي أريد."

سأل ميغيسي: "ما الذي أخبرته به حينها؟"

"كل الأشياء المركة التي استطعت تأليفها له."

"كيف تعرف أنه لم يكن صحفياً فعلاً؟"

"سأقول لكم. عذر لكل كم فعلت أنا. كنت مرة عند مكتب البريد ووجدته يخرج منه. دخلت المكتب بعد خروجه وقال لي الموظف الكلام التالي. "اسمع، أعتقد أن عليك طلب رسوم مضاعفة من الرجل الذي خرج للتو" "عليك أن تعطي" قلت له بعد أن رأيت البرقية المطوية والمكتوبة بالشيفرة التي كان الصحفي المدعو يريد إرسالها. "إنه يرسل صحيفة مثل هذه كل يوم" تابع الموظف. "أجل" قلت له: "إنه أخبار خاصة بصحيفته، وهو يرسلها حتى يطلع الآخرون هناك." هذا

ما اعتقده الموظف جيد وما اعتقدته أنا بسوري أيضاً لكن الآن الوضع مختلف."

"يا رب! أعتقد أنك على حق" قال ميغيتي: "لكن ما الذي تنصح بأن نفعله الآن؟"

"لم لا نذهب الآن مباشرة ونقضي عليه؟" اقترح أحدهم.

"أجل كلما كان أسرع كلما كان أفضل."

"كنت لأباشر هذا العمل الآن فوراً لو أنني أعرف مكانه" قال ماكوردو: "إنه بمكان ما في هوبسون كما قلت، لكني لا أعرف بالضبط أين. عندي خطة، إذا استمعتم فقط لنصيحتي."

"جيد، ما خطتك؟"

"سأذهب إلى ذلك المكان غداً صباحاً. قد أجد الموقع عبر موظف الاستقبال. أعتقد أنه سيعرف مكان تواجده. حسناً، بعد ذلك، سأقول له أنني من الأحرار. سأعرض عليه كل أسرار الجمعية مقابل تحديدي لسعر معين. أراهن أنه سيقتنع بهذا. سأقول له أن كل الأوراق موجودة في منزلي، وأن مجرد دخوله إلى منزلي سيكلفني حياتي، إذا ما شاهده أحدهم. هذا سيقنعه بصدق كلامي. سأطلب منه المجيء إلى منزلي في العاشرة ليلاً وحينها سأطلعه على كل شيء. هذا سيجلبه إلى الفخ بدون شك."

"لا بأس؟"

"تستطيعون تخطيط الباقي بأنفسكم. منزلي معزول. صحته صلبة كالحديد وصعبة تقريباً. هناك فقط سكانلان وأنا داخله ... د. حصلت

على وعده بمجيء – ستطلعكم على ذلك إن وافق – ثم تحضرون إلى مرسمي في التاسعة ليلاً. نطبق عليه. وإن تمكن من النجاة حسن، سيتحدث عن حظه طوال حياته!"

"سيكون هناك نقصاً مهماً في السكرتير." قال ميفيستو: "لندع الأمور عند هذا الحد يا كوردو. في التاسعة من مساء الغد سأكون عندك. أغلق الباب فقط خلفه واترك الباقي."

الفصل السابع

محاضرة بيردي إدواردز

كما قال ماكوردو، المنزل الذي كان يسكن به كان منفرداً وبعيداً عن باقي المدن وكان مناسباً جداً للخطة التي رسموها. كان من السهل جداً عليهم قتل الرجل في أية لحظة لكنهم أرادوا أن يعرفوا مدى ما توصل الرجل إليه من معلومات. من أين حصل عليها وما الذي أرسله لرؤسائه.

لربما يكون الوقت قد فات وأن كل شيء صار بيد رؤساء البينكرتون في نيويورك، لكن حسبنا على الأقل سيتمكنون من الانتقام من الرجل الذي فعل ذلك لكنهم أملوا أن لا شيء مهم قد تسرب بعد من الوادي وإلا لما كان المحري مضطراً لكتابة هذه البرقيات المطولة إلى نيويورك. على كل حال سيعرفون كل ذلك من فم الرجل مباشرة. حالما يقع بقبضتهم فهم سيجدون وسيلة تجبره على الكلام. هذه ليست المرة الأولى التي يفعلون بها هذا.

ذهب ماكوردو حسب الاتفاق وقابل الصحفي المتظاهر.

عاد من مهمته بعد الظهر وعرج على ميغينتي في منزل الاتحاد.

"سيأتي" قال ماكوردو.

"جيداً" قال ميغينتي: "هل تعتقد أنه قد عرف الكثير؟" نبرته كانت مرتعشة كأنه يخشى ذلك. هز ماكوردو رأسه بغموض.

"لقد مضت فترة لا بأس بها على وجوده هنا – ستة أسابيع على الأقل. لا أظن أنه أتى إلى هذه المنطقة للتسلية ومعرفة الأمور البسيطة. إذ كان يعمل بيننا طوال هذه المدة، وأموال الشركات خلف ظهره. فتوقع أنه قد حصل على شيء، وأنه قد أرسله بدوره إلى نيويورك."

"لا يوجد رجل ضعيف في الجمعية" صاح ميغينتي: "كل رجل منهم صلب كالحديد وصادق. لكن، يا إلهي! هناك ذلك الجبان موريس. ماذا عنه؟ إذا خان أي رجل سيكون هو وحده. أفكر بإرسال اثنين من الرجال إليه ليضربوه بشدة هذا المساء ويعرفوا إن كان قد تفوه بأي شيء."

"لا بأس، لن يحدث أي سوء بفعل ذلك" أجاب ماكموردو: "أنا لن أنكر أني أحب موريس قليلاً وسأحزن لإصابته بأي مكروه. لقد حدثني مرة أو مرتين بشؤون الجمعية، ومع أنه لا ينظر للأمور من منظورك أنت، لكنه لا يبدو من النوع الذي قد يخون. ولكن ليس لي من سيقف بينه وبينك."

"سأقتص من الشيطان العجوز!" قال ميغينتي بحدة: "لقد وضعت عيني عليه منذ سنوات سابقة."

"حسناً، أنت تعرف أكثر مني بهذه الأمور" أجاب ماكموردو: "لكن مهما كان ما تود القيام به فيجب أن تفعله في الغد وليس اليوم لأن علينا الهدوء حتى ننتهي من قضية بينكرتون هذه. لا نريد أن نثير الشرطة بهذا اليوم من بين كل الأيام."

"معك حق" قال ميغيتي: "وسنعرف من بيردي إدواردز نفسه من أين استقى معلوماته، لو اضطررنا نزع قلبه أولاً. هل بدا أنه يشك بأنك تنصب له فخاً؟"

ضحك ماكوردو. "أظن أنني سيطرت عليه بقبضة صلبة" قال: "إذا لاحت له الفرصة لمعرفة الأخبار المهمة حول اسكوروز فهو سيصعد إلى الغيوم ليفعل ذلك. لقد أخذت منه" أظهر ماكوردو بعض الدولارات التي قبضها "وسأحصل على الكثير حين أريه الأوراق."

"أية أوراق؟"

"لا يوجد أية أوراق. لكني حشوت رأسه حول كتب وأوراق تتعلق بقوانين الجمعية وأساليبها وقضاياها. يتوقع الوصول إلى لب الموضوع الذي أتى به إلى هنا قبل مغادرته لمعرفتي."

"بالطبع سيكون هذا" قال ميغيتي بابتسامة لئيمة: "ألم يسألك لماذا لم تحضر له الأوراق؟"

"لعلي قلت له كيف بإمكاني حمل كل تلك الأشياء، فيما أنا رجل مشكوك بأمره والنقيب مارفن لدي يلاحقني كل موجود في قاعة استقبال الدرب حين وصلت!"

"أوه، أنت فعلاً عبقري" قال ميغيتي بإعجاب: "أظن أن مكافأة الانتهاء من هذا العمل ستكون أهمية ستعود إليك."

هز ماكوردو كتفيه. "ليس هذا هو الأمر المهم لكن عندما اليوم بالعملية ينجح دون أن يعرف أحد أنه قد حدثت جريمة قتل من

الأصل. لن يراه أي شخص يدخل منزلي بحلول الظلام وسأعمل على
ألّا يشاهده أحد بعد ذلك أيضاً. ولن يسمع حضرة المستشار. سأحرك
بحذر، وسأطلب منك توزيع الأدوار على الآخرين. ستصلون جميعاً
بالوقت المناسب. جيد جداً. هو سيصل في العاشرة. سيدق ثلاث
مرات على الباب وأنا سأفتح الباب له. ثم سندور حوله ونغلق الباب.
بعد ذلك يصبح الرجل لنا."

"هذا سهل وواضح."

"لكن الخطوة الثانية بحاجة لانتباه. إنه رجل صعب وصلب. وهو
مسلح أيضاً. لقد خدعته أجل، لكنه لم يتخل عن حرصه وانتباهه.
افترض أنه رآني أدخله إلى غرفة بها سبعة رجال فيما من المفترض أن
أكون بمفردي؟ سيحصل إطلاق نار وسيصاب أحدنا دون شك."

"هذا صحيح."

"والضجة ستحضر كل شرطي لعين في المقاطعة."

"أظن أنك على حق."

"إليك ما يجب أن نفعل. ستنتظرون جميعكم في الغرفة الكبيرة -
سأفتح الباب له وأقوده إلى غرفة الجلوس وأتركه هناك ريثما أحضر
الأوراق. هذا سيعطيني الفرصة لأخبركم كيف تسير الأمور. ثم سأعود
إليه ببعض الأوراق المزيفة. فيما هو يقرؤها سأهجم عليه وأجرده من
سلاحه. ستسمعون ندائي وستدخلون فوراً. الأسرع هو الأفضل لأنه
قوي تقريباً وقد لا نتمكن من السيطرة عليه. لكني سأحاول أن أبقيه
بلا حراك حتى قدومكم."

"إنها خطة جيدة" قال ميغيتي: "ستمنحك الجمعية مكافأة لهذا. أظن أنه قبل تنحيتي عن الكرسي فستوصي باسم الرجل الذي سيخلفني عليه."

"أنها المستشار، مجرد تابع لك" قال ماكوردو.

عاد ماكوردو إلى منزله وتفحص الغرفة التي ستتم فيها العملية ونصح سكانلان بمغادرة المكان لأن الأخير يخشى رؤية الدم والتعذيب.

"إذا لم يؤاخذني أحد لديك فسأكون مسروراً أن أفعل" قال سكانلان.

وصل الرجال في الوقت المحدد وكانت عيونهم تبرق شراً ووجوههم الشرسة المتوحشة تتعطش لتنفيذ المهمة.

"سنحصل على حقيبته منه" قال بلدوين بثقة.

"أجل سنحصل عليها منه، لا خوف من هذا" قال ماكوردو.

كانت له أعصاب من الحديد هذا الرجل. ومع أن عبء المهمة الكبرى كان يقع على كاهله إلا أنه كان بارداً وهادئاً كعادته. لاحظ الآخرون هذا وزاد إعجابهم به.

"أنت من سيهتم بالرجل" قال ميغيتي: "لن يحصل على أي تحذير إلى أن تكون قبضتك حول عنقه. من المؤسف أنه لا يوجد أقفال لنوافذك."

أغلق ماكوردو الستائر جيداً. "بالطبع لن يتمكن أحد من التجسس علينا الآن. تكاد الساعة أن تصل."

"ربما لن يأتي. قد يشتم رائحة الخطر" قال اسكرتير.

"سيأتي، لا تخشَ من ذلك" رد ماكوردو: "إنه متلهف للقدوم بقدر تلهفك لرؤيته. اعتمد على ذلك!"

جلسوا جميعاً كتماثيل الشمع. لحظات وسمعت دقات ثلاث على الباب.

"الصمت!" حذر ماكوردو قبل مغادرته للغرفة واتجاهه نحو الباب.

بآذان صاغية انتظر الستة. عدوا خطوات رفيقهم على الممر في الخارج ثم سمعوه يفتح الباب الخارجي. كلمات ترحيب قليلة. صوت خطوات أخرى وصوت غير مألوف. بعد لحظة أُقفل الباب الخارجي بالمفتاح. فريستهم دخلت [illegible] الفخ. ضحك تايغر كورماك ثم ألصق ميغينتي [illegible] على فمه.

"اصمت وابق هادئاً أيها الأحمق!" همس: "لم ينجح بالمهمة بعد!"

سمعوا صوت مناقشة في الغرفة المجاورة. ثم فتح باب غرفتهم وظهر ماكوردو وإصبعه على فمه.

وصل إلى نهاية الطاولة ونظر إليهم. تعبير هادئ كان قد حل به. أسلوبه كان كمن يقوم بعمل ضخم. وجهه كان صلباً كالغرانيت وعيونه تبرق بقوة. أصبح قائداً واضحاً للرجال. حدقوا به بتلهف حار، لكنه لم ينطق بشيء. بنفس النظرة المحدقة نقل بصره من أحدهم للآخر.

"حسناً!" قال ميغينتي أخيراً: "هل هو هنا؟ هل بيردي إدواردز هنا؟"

"نعم" أجاب ماكوردو ببطء: "بيردي إدواردز هنا. أنا هو بيردي إدواردز!"

ساد الصمت القاتل والذهول الكامل الغرفة بأكملها بعد هذه الكلمات. سبع وجوه بيضاء كالموتى ظلت تحدق بهذا الرجل المسيطر بذعر هائل. ثم فجأة، صوت تمزيق الستائر، وظهرت عشرات البنادق عبر النوافذ الخالية من الزجاج. برؤيته لهذا المنظر، الرئيس ميغينتي كالدب الجريح وهرع نحو باب الخروج. مسدس لامع واجهه هناك وكذلك عيون الرقيب ماروين الصلبتين. تراجع الرئيس وتهاوى على كرسيه.

"أنت بأمن أكثر هكذا حضرة المستشار" قال الرجل الذي كانوا يعرفونه باسم ماكوردو: "وأنت، بالدوين، إذا لم تبعد يدك عن مسدسك فستنقص عدد من سيشنق واحداً. اسحب يدك ولا وحق من خلقني جل هذه الغرفة. هناك أربعون رجلاً مسلحاً حول هذا المبنى وتصوروا بأنفسكم فرصكم بالنجاة من كل هذا. جردهم من سلاحهم ماروين!"

لم يكن من مقاومة أبداً تحت تهديد ذلك الكم من البنادق. جُرّد الرجال من أسلحتهم وهم خانعين، مذهولين ومصعوقين.

"أود أن أقول لكم كلمة أخيرة قبل أن نفترق" قال من أوقع بهم: "أظن أننا لن نلتقي ثانية إلا في المحكمة. سأعطيكم شيئاً تفكرون به حتى ذلك الحين. أنتم تعرفونني الآن على حقيقتي. أستطيع أخيراً أن أضع كل أوراقي على الطاولة. أنا بيردي إدواردز من البينكرتون. لقد تم اختياري

للقضاء على عصابتكم كانت أمامي لعبة خطيرة وصعبة لأقوم بها. ولا أي مخلوق ولا أي شخص في المكان هنا كله عرف بها باستثناء السيد مرفي وروزنسفي. لكن كل شيء قد انتهى اليوم والحمد للرب، وأنا أرتاح!"

الوجوه الستة الشاحبة المتوحشة نظرت إليه. الكره الأعمى والحقد كان يلمع داخل عيونهم. قرأ التهديد الخطير.

"ربما تعتقدون أن اللعبة لم تنتهِ بعد. لا بأس سأتخذ فرصتي بذلك. على كل حال بعضكم لن يتمكن من القيام بأي شيء الليلة وهناك ستون آخرون منكم سيشرّفون السجن في هذه الليلة أيضاً. أقول لكم هذا، حين عُهدت لي هذه المهمة لم أكن أصدق أن هؤلاء منظمة مثلكم حقاً. كنت أظن أن كل ذلك كان مجرد كلام صحف، وأنني سأبرهن ذلك. قالوا لي أن الأمر يتعلق بالرجال الأحرار. فذهبت إلى شيكاغو وانضممت إليهم. حينها تأكدت أكثر من السابق أن الأمر مجرد كلام صحف، لأني لم أجد أي أذى أو سوء بالجمعية هناك. لكن كان علي متابعة عملي وأتيت إلى الوادي لأستنتج هذا. حين وصلت أدركت فوراً خطئي وأن الأمر ليس مجرد روايات صحفية. ولهذا فقد بقيت هنا لأعتني بذلك. لم يسبق لي وقتلت أي رجل في شيكاغو. لم أزيف دولاراً واحداً في حياتي كلها. التي أعطيتكم إياها كانت حقيقية تماماً. لكني لم أصرف المال بشيء أفضل من هذا أبداً. عرفت ما تحبونه فدخلت بينكم بوصفي ضد القانون وملاحق. وقد نجح كل شيء كما قدرت له.

وهكذا فقد انضممت لعصابتكم الرهيبة وشاركت بإعطاء النصح.
وفي الليلة التي شاركت معكم بضرب الرجل ستينمر الصحفي، لم أستطع
تحذيره لضيق الوقت، لكني منعتك يا دوبي من قتله. لقد اقترحت
عليكم بعض الأشياء حتى أحافظ على مكاني بينكم، فهذه كانت الأشياء
أعرف أن بإمكاني منعها. حذرت تشيستر ويلكوكس بنفسي ولهذا كان
منزله فارغاً حين حرقتموه. هناك جرائم عديدة لم أستطع منعها لكن إذا
نظرتم إلى ماضيّ جيداً ولاحظتم عدم مرور الرجل المقصود بالقتل من
الطريق المحدد، أو وجوده في منطقة نائية حين تهرعون إليه لتقتلوه أو
حين يبقى داخل المنزل بينما أنتم بانتظاره خارجه فستعرفون أعمالي."

"أيها الخائن اللعين!" همس ميجينتي عبر أسنانه المطبقة.

"آه، جون ميجينتي، باستطاعتك نعتي بذلك إذ كان هذا يريح
بالك. أنت وأمثالك كنتم أعداء الرب والبشر في هذه الأنحاء. كان هناك
طريقة واحدة لإيقافكم وقد قمت بها. تدعونني "خائناً" لكني واثق أن
آلافاً غيرك سيدعونني "مخلصاً" بعد أن هبطت وكشفت كل سر من أسراركم
وأخبرت عنكم على أكمل وجه هنا وحين تحين ساعتي سأموت مرتاحاً
للعمل الذي أنجزته بهذا الوادي. والآن يا رفاق لن أدعكم تنتظرون أكثر.
استلموهم وتابعوا عملكم."

شيء قليل يقال بعد. لقد سبق لماكموردو إرسال ورقة مع
سكانلان للآنسة إيتي وبعد ساعات قليلة كانت الشابة الجميلة
وحبيبها في طريقهما إلى شيكاغو حيث غادرا هذا الوادي إلى غير

رجعة. تزوج إدواردز وإيتي بعد شهر في شيكاغو وكان شفتر العجوز هو شاهد زواجهما.

محاكمة السكورر كانت كاملة وناجحة، ولم تنجح أية محاولات للسلطة بالخداع وإظهار براءة متهمين فكل التفاصيل لجرائمهم كانت موجودة وهكذا شنق ميغينتي مع ثمانية من كبار مساعديه وتعرض بقية الأفراد لأحكام مختلفة بالسجن وتحطمت منظمتهم وتلاشت سحابة غيمة الخوف عن الوادي مرة وللأبد بفضل جهد رجل واحد يدعى بيردي إدواردز.

ولكن كما توقعوا لم تنتهِ اللعبة عند هذا الحد، بل أخرى تابعت اللعب وأخرى. تيد بالدوين مثلاً قد هرب من السجن وكذلك الأخوة ويلابي كما فعل العديد من أقسى وأشرس رجال العصابة. لعشرة سنوات ظلوا داخل السجون - هربوا بعد ذلك وأدرك إدواردز أن الخطر عاد إلى حياته. جميعهم كان قد أقسم بدمائه أن ينتقم منه ولو كان آخر يوم من حياتهم!

بعد محاولتين فاشلتين لقتله ترك شيكاغو تحت اسم مستعار وانتقل إلى كاليفورنيا حيث توفيت إيتي. مرة ثانية كاد أن يقتل لكنه نجح بمغادرة المكان تحت اسم دوغلاس المستعار ووصل إنكلترا. تزوج من امرأة جميلة وعاش خمس سنوات كرجل محترم - لكن الكلاب الشرسة كانت وراءه وأنهت حياة أحدهم بالطريقة التي قرأتموها سابقاً.

الفصل الثامن

الخاتمة

هرب جون دوغلاس وزوجته من إنكلترا تحت جنح الظلام بعد أن أرسل هولمز للزوجة رسالة تحذير تقول: "أخرجيه من إنكلترا بأي ثمن لأن ما هو هنا قد يكون أكثر خطورة من العصابة التي نجح حتى الآن بالفرار منها. لا يوجد أمان لزوجك في إنكلترا."

انتهت القضية عند هذا الحد بالنسبة لهولمز ولي ولم نعد نسمع شيئاً عنها إلا بعد شهرين حين وصلت لصديقي برقية مختصرة تقول:

"إلحقني، يا سيد هولمز. إلحقني!"

أنا ضحكت مرحاً لهذه البرقية الغريبة لكن صديقي بدا متجهماً وجاداً.

"عمل الشيطان يا واطسون!" علق وقطّب جبينه.

لاحقاً ذلك المساء أتى لزيارتنا السيد باركر، صديق من منزل آل دوغلاس، وجهه كان داكناً ومتصلباً.

"أحمل أخباراً سيئة – أخبار مريعة، سيد هولمز."

"أخشى أني أعرفها" قال هولمز.

"لقد وصلتك برقية؟"

"لقد وصلتني برقية من أحدهم أجل."

"إنه دوغلاس مسكين. يقولون لي أن اسمه هو إدواردز، لكنه سيكون دوماً جاك دوغلاس بالنسبة لي. أقول لك إنهما قد رحلا نحو جنوب أفريقيا على متن باخرة "بالميرا" قبل ثلاثة أسابيع سابقة."

"ممتاز."

"الباخرة وصلت بيئة كاب ليلة البارحة. وصلتني هذه البرقية من السيدة دوغلاس هذا الصباح—"

"لقد فقد جاك من على متن السفينة وسقط بالبحر قرب مرفأ هيلينا. لا يعرف أحد كيف حدث الحادث —

إيفي دوغلاس."

"ها! إذاً فقد تم الأمر بهذه الطريقة؟" قال هولمز بتفكير: "حسناً، لا شك عندي أنهم قد نجحوا تماماً في تدبير ذلك."

"هل تعتقد بأنه مجرد حادث؟"

"لا مطلقاً."

"قتل؟"

"بالتأكيد!"

"هذا ما أعتقده أنا أيضاً. هؤلاء السكورزر الملعونون، موطن المجرمين هذا—"

"لا، لا، يا سيدي العزيز" قال هولمز: "هناك يد عبقرية ومسيطرة هنا. ليست المسألة مسألة قتل بسيطة. تستطيع معرفة عمل المعلم بطريقة تحريكه لريشته. أستطيع معرفة عمل موريارتي حيث أرى هذا. العمل هذه جريمة من لندن وليس من أمريكا."

"لكن ما هو الدافع؟"

"لأنها تمت من قبل رجل لا يقبل الفشل – رجل موقعه الفريد يعتمد على حقيقة أن كل ما يفعله يجب أن ينجح. عقل كبير ومنظمة ضخمة توحدت لقتل رجل واحد. إنها كسر البندقة بالمطرقة – مجرد إظهار للقوة الطاغية – لكن البندقة قد تكسرت وهنا هو الحزن بالأمر."

"وكيف حدث وتورط هذا الرجل بتلك المسألة؟"

"أستطيع فقط القول أن الكلمة الأولى التي وصلتنا بهذه القضية كانت عبر واحد من أتباعه. هؤلاء الأمريكان سريعوا التصرف. حين وجدوا حليفاً بريطانياً ليساعدهم سارعوا لتوصيته بإتمام العمل. منذ تلك اللحظة حكم بالإعدام على الرجل المقصود. فأولاً العقل العبقري هنا سيرضى بعرض قوته وجبروته. بعدها سيحدد كيف يتم تنفيذ العمل. في النهاية حين يقرأ بالصحف خبر فشل عملاءه فسيتدخل بنفسه."

ضرب باركر رأسه بيده بحدة من شدة غضبه وندمه.

"هل تقول لي أن علينا الاستسلام لهذا؟ هل تقول أن أحداً لا يمكنه المساواة والوقوف كالغريم الند لملك الشياطين ذاك؟"

"لا، أنا لا أقول هذا" قال هولمز وعيونه محدقة كأنه يستشف المستقبل: "لا أقول أنه لا يُهزم. لكن يجب أن تعطيني الوقت – يجب أن تعطيني الوقت!"

جلسنا جميعاً بصمت لعدة دقائق فيما ظلت تلك العيون الحادة تحدق لتخرق الحجاب.

- تمت -

أميركا عام 1875. عاش سكان وادي فيرميسا على الإشاعات المدمرة والقتل، والإرهاب. وبما أن مجتمعاً بكامله كان عرضة لجبروت أولئك الذين عاثوا في الأرض فساداً وجوراً وابتزازاً

بريطانيا بعد عشرين سنة. استنجد المحققون بخدمات شارلوك هولمز وزميله واطسون للكشف عن ملابسات جريمة قتل غامضة. كشفت التحقيقات أن وراءها أبعاداً دولية، يقف وراءها الدماغ المدبر لشخص واحد هو البروفسور موريارتي (الخصم الأكثر إثارة لحفيظة هولمز)

"From a drop of water," said the writer, "a logician could infer the possibility of an Atlantic or a Niagara without having seen or heard of one or the other. So all life is a great chain, the nature of which is known whenever we are shown a single link of it. Like all other arts, the Science of Deduction and Analysis is one which can only be acquired by long and patient study nor is life long enough to allow any mortal to attain the highest possible perfection in it. Before turning to those moral and mental aspects of the matter which present the greatest difficulties, let the enquirer begin by mastering more elementary problems. Let him, on meeting a fellow-mortal, learn at a glance to distinguish the history of the man, and the trade or profession to which he belongs. Puerile as such an exercise may seem, it sharpens the faculties of observation, and teaches one where to look and what to look for. By a man's finger nails, by his coat-sleeve, by his boot, by his trouser knees, by the callosities of his forefinger and thumb, by his expression, by his shirt cuffs—by each of these things a man's calling is plainly revealed. That all united should fail to enlighten the competent enquirer in any case is almost inconceivable."

— "A Study in Scarlet"